حِوارٌ عن التجسُّد

دكتور جورج حبيب بباوي

حِوارٌ عَنِ التجسُّد

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٨

الكتاب : حوار عن التجسد
المؤلف : الدكتور جورج حبيب بباوي
الناشر : جذور للنشر – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
الطبعة : الثـالثة ينـاير ٢٠١٨
رقم الإيداع : ٢٥٩٩٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978-977-5086-22-8
المطبعة : جي سي سنتر ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة

المحتوايات

الحوار الأول

التجسُّد يميِّز المسيحية ٧

التجسُّد وعظمة الله ٩

التجسُّد ليس تحوُّلاً في طبيعة الله ٩

التجسُّد يكمِّل خلق الإنسان ١١

الوحي كلمات بشرية ١٢

عدم كفاية الوحي ١٣

التجسُّد والكتاب المقدس ١٤

غاية خلق الإنسان ١٦

ما هي المحبة؟ ١٧

التجسُّد والمحبة ١٩

التجسُّد يعلن عظمة الإنسان ١٩

التجسُّد ولغة الوحي ٢١

التجسُّد وصورة الله في الإنسان ٢٣

الإنسان كمشروع ٢٥

علاقة السيد والعبد ٢٦

خطية آدم ٢٨

التجسُّد وعلاقتنا مع الله ٣٠

المحبة وعظمة الله ٣٢

هل يوجد تناقض بين الله والإنسان؟ ٣٥

الحوار الثاني

أسباب التجسُّد ٣٨
عطية البنوة بتجسد الابن ٤٣
قوة المحبة ٤٤
المسيح آدم الثاني ٤٦
الطبيعة الجديدة ٤٧
العلاقة السطحية مع الله علاقة سهلة ٤٩
الصلاة باسم المسيح ٥٠
تطور علاقة الإنسان بالله بسبب التجسُّد ٥٢
اتحاد اللاهوت بالناسوت ٥٤
التجسُّد علاقة أبدية ٥٥
مثل المسيح ٥٥
الشركة في الطبيعة الإلهية ٥٦
لا خلود ولا قيامة بدون الشركة في الذي لا يموت ٥٧
قيامة الأبرار والأشرار ٥٩
مثل المسيح في إنسانيته ٥٩
اتحاد اللاهوت بالناسوت حسب شرح القديس كيرلس الكبير ٦٣
إعلان الروح القدس عن أقنومه ٦٥
شرح معمودية المسيح ٦٦
كنيسة جسد المسيح ٦٧
الكنيسة تتكون في الإفخارستيا ٦٩
المسيح هو رأس الكنيسة ٧١

الحوار الثالث

التجسد والديانات الوثنية ٧٣
الثالوث ليس من الديانة الفرعونية ٧٤
معنى ابن الله ٧٥
هل التجسد قريب من الوثنية؟ ٧٧
المقارنة اللغوية لا تكفي ٧٨
حلول الله في البشر ٧٩
اليهودية والوثنية ٨٣
العقل والإيمان ٨٦
طبيعة الصلاة ٨٧
الصلاة والتجسد ٨٩
صلوات السواعي ٩١
صلاة شهيد ٩٤

الحوار الأول

صديقي إبراهيم من الذين يحبُّون البحث والدراسة والتعمُّق في فهم العقيدة المسيحية، وقد دار بيننا هذا الحوار على فتراتٍ متباعدةٍ من الزمن، ولكننا سجَّلناه معاً.

التجسُّد يميِّز المسيحية

إبراهيم: ما هي أهم عقيدة تميِّز الإيمان بالله في المسيحية؟

جرجس: الإيمان بالإله المتجسِّد. لأن كل الديانات تتحدث بشكل أو بآخر عن الله. أمَّا المسيحية، فهي تتحدث بشكلٍ خاصٍّ فريد لا مثيل له عن محبة الله للإنسان، وهذه المحبة هي التي جعلته يُعلن عن نفسه باتخاذه الطبيعة الإنسانية، أي الروح والجسد، واتحاده بهما لكي يُعلن عن نفسه في حياةٍ إنسانيةٍ كاملة، وشخصٍ اسمه يسوع.

إبراهيم: ماذا تقصد بعبارة يُعلن عن نفسه؟

جرجس: المسيحيةُ تعلمنا أن الله لا يُعلن عن صفاته، بل عن نفسه، عن ذاته، وهذا عنصرٌ جوهريٌّ مرتبطٌ بالموضوع الذي نتحدث فيه.

إبراهيم: لماذا يلجأ الله إلى التجسُّد بالذات لكي يُعلن عن نفسه؟ ألا تكفي كلمات الوحي؟

جرجس: لا تنكر المسيحية أن الله أعلن عن نفسه عن طريق الأنبياء، وطالما أنك تؤمن بالوحي وبكلام الله للأنبياء، فأنت قادرٌ على أن تفهم رسالة المسيحية. لأن كل مَن يؤمن بالوحي، يؤمن أن الله يأخذ زمام المبادرة لكي يُعلن عن نفسه.

الوحيُ هو حديثُ الله مع الإنسان، ولذلك تؤمن المسيحية أنَّ الوحي يقود إلى نتيجةٍ هامةٍ أساسية، وهي أن يدخل الله بنفسه عالم الإنسان ويتَّحد

بالجسد البشري لكي يكشف بشكل كامل عن نفسه. ويشبِّه بعض الآباء «الوحي» بـ«الخطوبة»، و«التجسُّد» بـ«الزواج»؛ لأن التودد والألفة تنتهي بالاتحاد وبعلاقةٍ أقوى، ولذلك ختم الله إعلانه عن نفسه بالتجسُّد.

إبراهيم: ألا ترى أن هذه مبالغةٌ منّا بالحديث عن اهتمام الله بالإنسان؟

جرجس: المبالغة هي تضخيم بعض الوقائع، وإضافة عناصر من الخيال تزيد من حجم ومعنى واقعة من الوقائع. وأنا لا أرى أننا أضفنا إلى الواقع أيَّ عنصرٍ خياليٍّ. ولكن تطلَّع حولك تجد أن الإنسانَ هو أفضل مخلوقات الله؛ لأن كل ما حولنا من مخلوقات ابتداءً من الشمس، وهي أكبر المخلوقات إلى البكتريا، وهي أصغرها، إنما جُعِلَت لخدمة الإنسان. بل لقد استطاع الإنسان أن يسخِّر الماء والهواء وكل طاقات الكون لمصلحته. كل هذا يؤكد أن الإنسان هو سيد المخلوقات، فأين المبالغة في تقدير عظمة الإنسان؟ وأين المبالغة في تنازُل الله إلى درجة اتحاده بالطبيعة الإنسانية؟

إبراهيم: المبالغة فيما تسميه أنت بالتجسُّد، أي اتحاد الله بالنفس البشرية والجسد البشري، فهو تنازُلٌ لا يتفق مع جلال الله وعظمته.

جرجس: لست أدري كيف يمكننا أن نحدد ما يتفق مع الله وما لا يتفق معه؟ وهل لديك مقياسٌ موضوعي؟ أعتقد أن الأديان جميعاً تحدد ما يتفق مع الله وما لا يتفق معه على أساس نظرة ذاتية ليست موضوعية. وخلف كل نظرة ذاتية توجد دائماً فكرة تقديرية يقدِّر فيها الإنسان موقفه من العقائد حسب نظرة الإنسان إلى ذاته، وحسب ما يتطور في فكره من آراء.

إبراهيم: لست أتفق معك؛ لأنه من المنطقي أن جلال الله وعظمته لا يسمحان له بأن يتَّحد بمخلوقات مثل الإنسان.

التجسُّد وعظمة الله

جرجس: إنَّ ما تقوله يعبِّر عن نظرة ذاتية غير موضوعية وغير فلسفية تتصوَّر فيها وجود تناقض أساسي بين عظمة الله وحقارة الإنسان، وهذه مشكلة الفكر الديني بشكل عام، فهو فكرٌ يصدر عن نظرة ذاتية، ولا تحكمه المقاييس الموضوعية التي تحكم العلوم والفلسفة. فإذا رفضت التجسُّد، فإن رفضكَ -أياً كانت أسبابه- لا يثبت أن التجسُّدَ خطأٌ؛ لأن رفضك هو نظرة ذاتية.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: لقد تصورت أن عظمة الله تمنعه من التجسُّد. أليس كذلك؟

إبراهيم: طبعاً.

جرجس: حسناً جداً. لكني استطيع أنْ أتصوَّر أنَّ عظمة الله تدعوه إلى التجسُّد. والعظمة التي أقصدها، هي عظمة المحبة، بينما العظمة التي تتصورها أنت فهي عظمة الترفُّع والتعالي والاستهانة بالإنسان. وأنت بذلك تتصوَّر الله مثل الملوك والرؤساء، وبالتالي تصبح صورتك عن الله نابعةٌ من الفكر السياسي والممارسات الاجتماعية، وتحوِّل هذه الصورة إلى رؤية ذاتية تظن أنها صورة دينية.

إبراهيم: ليكن. ومع ذلك، فأنت لا تستطيع أنْ تنكر أنَّ هناك فوارق ضخمة بين الله وبين المخلوقات تحولُ، بل تمنع أن يصبح الله إنساناً.

التجسُّد ليس تحوُّلاً في طبيعة الله

جرجس: إذا كنت تفهم أن التجسُّد يعني تحول الله إلى إنسان، فأنت مخطئ. وهذا -على أية حال- ليس تعليم المسيحية. فسوف تظل الفوارق بين الله وبين المخلوقات، ومع ذلك يتنازل الله ويتَّحد بكل مكونات الإنسان، ويظل في

نفس الوقت الإله القادر على كل شيء. ولذلك أريد أن أسألك سؤالاً هاماً: ما هي الفوارق الضخمة الخطيرة التي تمنع اتحاد الله بالجسد والنفس الإنسانية؟

إبراهيم: أولاً: طبيعة الله نفسه، فهي طبيعة مختلفة عن طبيعة الإنسان.

ثانياً: اتحاده بالإنسان يعني أنه سوف يصبح مثل الإنسان، محدوداً.

ثالثاً: سوف يأكل ويشرب ويتبول، وهذه كلها أفعال دنيئة لا تليق بالخالق.

جرجس: حسناً جداً. نحن لا ننكر أنَّ طبيعة الله مختلفة عن طبيعة الإنسان. ولكن لا تنسى أن الله هو خالق الإنسان، وهو يعرف الفرق بينه وبين المخلوقات، وهو قادرٌ -كخالقٍ- بما يملك من قدرة على الخلق أن يحل هذه المشكلة. أمَّا الاعتراض الثاني، فهو بلا قيمة. ذلك؛ لأن اللاهوت لا يمكن حشره في الجسد، فاللاهوت لا يمكن أن يتغيَّر ويصبح محدوداً. ولعل خلق الكون هو دليل قوي على صحة ما نقول. فالكون مهما كان، فهو محدود جداً بالنسبة لله. وعندما خلق الله الكون ظلَّ في الكون وخارج الكون، ونفس الشيء ينطبق على اتحاد الله بالجسد.

أمَّا الاعتراض الثالث، فهو أسهل الاعتراضات. فنحن البشر -ولأسباب يعرفها علماء النفس- نرى أن الأفعال البشرية مثل الأكل والنوم والتبول هي أفعال دنيئة؛ لأنها كثيراً ما ترتبط في أذهاننا بخبرات سيئة أو مؤلمة، لاسيما عن الأعضاء التناسلية، وهو ما يجعلنا نشعر بدناءة هذه الأعضاء وحقارتها. ولكن علينا ألا ننسى أنَّ الله هو خالق هذه الأعضاء، وهو الذي جعل لها نظاماً دقيقاً هائلاً يمكنك أن تراه في أي كتاب للتشريح. وينطق كل جهاز من هذه الأجهزة بقوة الله وإبداعه، وليس بدناءة وحقارة الإنسان.

إبراهيم: ومع ذلك أعود وأكرر أن التجسُّد يُعدُّ شيئاً حقيراً لا يتناسب مع الله.

جرجس: وأنا أكرر الكلام. إن الله ليس مصاباً بعُقَدٍ نفسية تجعله يختفي عن أحب

المخلوقات إليه. أخاف أن يكون عندك أنت خبرة سيئة تجعلك تشعر أنَّ الله يبعد أو بعيد عنك، تجعلك غير قادر على تصديق محبة الله. لماذا لا تقرأ كتاباً مثل «دنيا الله»، وهو مجموعة قصص للأستاذ نجيب محفوظ؟ لقد حاول ذلك المفكر الكبير أن يعبِّر بها عن تصوُّر عدد من الشخصيات لله، فجاءت كل شخصية تتصور الله بشكل يتفق مع المشكلة التي يعاني منها (شخصية معينة)، وجاء تصور الله على شكل ردٍّ وحلٍّ لهذه المشكلة. وأريد أن أسألك سؤالاً هاماً: كيف تفهم خلق الإنسان؟

التجسُّد يكمِّل خلق الإنسان

إبراهيم: خلق اللهُ الإنسانَ من طين، وأعطاه روحاً خالدة لا تموت. بل أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم إلَّا إبليس الذي أبى وتكبَّر ورفض، فطُرِد من الجنة.

جرجس: ممتاز جداً. لأننا نتفق على أن الإنسان مخلوقٌ من عدم. وخلق الإنسان من تراب يؤكد أن الله فضَّل الإنسان عن الملائكة. وما سجود الملائكة إلَّا تعبيرٌ عن خدمة الملائكة للإنسان.

إبراهيم: لا بأس، إذا كان هذا التفسير يعجبك.

جرجس: إذاً نحن نتفق على أن الإنسان مخلوقٌ ممتاز، سجد له الملائكة، وهذا يؤكد أن الإنسان أرفع وأكرم مخلوقات الله. ألا يؤكد هذا محبة الله للإنسان؟

إبراهيم: هل توجد طريقة واحدة فقط للتعبير عن محبة الله؟ ثم لماذا ينحصر التعبير عن محبة الله في التجسُّد؟

جرجس: التعبير عن أي أمر من الأمور له درجات من الوضوح. والمحبة درجات أيضاً. هل تؤمن بالوحي؟ إن الوحي درجة من درجات التعبير عن الله، ودرجة من درجات المحبة. والوحي كما أفهمه هو اختيار الله للكلمات البشرية المناسبة التي تصلح للتعبير عن نواياه وصفاته. إن الوحي هو محاولة الله للاقتراب إلى الإنسان، هو تعبيرٌ عن رضا الله بأن يدخل دنيا الإنسان.

الوحي كلمات بشرية

إبراهيم: هذا تفسيرٌ غريب. هل أنت تعتقد أن كلمات الوحي التي أوحى بها الله هي كلماتٌ بشرية؟

جرجس: بكل تأكيد.

أولاً: لأنها موجَّهةٌ للإنسان. ولو كانت كلمات الوحي لغةً إلهيةً، أي غير بشرية، فكيف استطاع الإنسان أن يفهمها؟ ألا ترى أنها ستصبح لغة غريبة عليه؟

ثانياً: إن كلمات الوحي هي كلمات تنتمي لدنيا الإنسان؛ لأن الذين نطقوها بشرٌ، والذين سجَّلوها بشر. ويتناول الوحي أسماء بلاد ونباتات وعادات الإنسان من زواج وطلاق، ولا يوجد من يمكنه أن يدَّعي أنه توجد لغة إلهية.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: أولاً: لأن الوحي يعبِّر عن تنازل الله إلى دنيا الإنسان ورغبته في أن يعلن عن نفسه للإنسان. فاتخذ الله من لغة الإنسان وسيلةً لكي يعلن بها عن نفسه ويحدِّثُ الإنسانَ عن نفسه، وعن العلاقة التي يمكن أن تقوم بينه وبين الإنسان.

إبراهيم: كيف تعتبرُ هذا بدايةً أو مقدمةً للتجسُّد؟ لماذا لا يكون هذا هو كل ما وصل إلينا، بل ما لا يمكن أن يتعدَّاه؟

جرجس: يتعداه!! مَن: الله أم الإنسان؟

إبراهيم: الإنسان طبعاً.

جرجس: أعتقد أن الوحي هو بداية العلاقة مع الله والإنسان. وإذا كان الله قد أخذ زمام المبادرة بيده، فإننا –منطقياً– لا نملك أن نقول إن هذا هو آخر

ما عند الله من وسائل؛ لأننا بهذا نفرض قيوداً على الله، ولا يوجد نصٌّ واحدٌ في أي كتاب ديني يصرِّح بأن الله رَفَضَ التجسُّد، أو أتخذ من الوحي الوسيلة الوحيدة التي لا يمكن أن يتخطاها.

عدم كفاية الوحي

إبراهيم: لماذا تعتقد بعدم كفاية الوحي؟

جرجس: لأن الوحي –مهما كانت قيمته– يصبح بمرور الزمن مشكلة. لأن كلام الوحي يعتمد على مفردات اللغة، وأي لغة تتطور وتصبح بعد ألف سنة غريبة غير مألوفة على مسامع الناس. وعلى سبيل المثال يُوصَف الله بأنه «ملك»، وها أنت ترى أن النظام الملكي ينقرض. وفي مصر اختفت الملكية. وإذا قلنا إن اللهَ «ملكٌ»، فإن هذا الوصف لا يفيد شيئاً بالنسبة لكل الذين وُلدوا بعد ثورة ١٩٥٢م.

ثم ماذا عن المفردات الجديدة التي لم يستخدمها الوحي مطلقاً. لو حصرنا مفردات اللغة العربية في المائة سنة الأخير لوجدنا رصيداً هائلاً لم يكن موجوداً من قبل، فالسيف مثلاً اختفى تماماً وحلَّت مكانه البندقية. وقد يأتي اليوم الذي تختفي فيه البنادق. وحلَّت السيارة والطائرة محل «الجمل».

إبراهيم: آه، هذه كلها تغيُّرات لا تمس صميم رسالة الوحي؛ لأن الوحي رسالةٌ أبدية.

جرجس: المشكلة هي كيف تُصالح الأبدية مع كلمات زمنية مؤقتة تعبِّر عن عصر دون عصر، وتموت هذه الكلمات بتغيُّر الحياة، فتفقد الرسالة علاقتها بالواقع. ألا ترى أن الله يعرف ضعف اللغة البشرية، وأنه يدرك أن الكلام البشري وسيلة مؤقتة تصلح لعصر دون عصر؟ ولو حلَّلنا كلمات الأنبياء لوجدنا أن الكلام ينقل إلينا صورة بيئة النبي، وأننا نحتاج إلى العودة إلى أصل كل كلمة حتى تستطيع –بطريقةٍ صحيحةٍ– أن تشرح معاني

الكلمات. ولعلك سمعت اليوم عن تقدُّم فرع الدراسات اللغوية التي يسمى «المورفيولوجي»، وهو يقوم على دراسة الصوَّر والتركيب اللفظي لكل جملة، وهي دراسة تجعل الباحثُ قادراً على تحديد العصر والمجتمع الذي كُتِبَتْ فيه هذه الجملة، بل يمكنه أن يحدد ثقافة وفكر كاتبها.

إبراهيم: أنت تهاجم ليس الكتاب المقدس فقط، بل كتب الديانات الأخرى.

جرجس: أنا لا أهاجم أحداً. لا الكتاب المقدس ولا غيره. إن الكتاب المقدس ينقسم إلى قسمين رئيسيين: العهد القديم، وهو مجموعة أسفار الأنبياء، ثم العهد الجديد، وهو مجموعة أسفار كتبها الذين عاشوا مع المسيح وتتلمذوا عليه وعرفوه وسجَّلوا لنا حياته. **والفرق بين العهدين كبير. هو فرقٌ بين مَن يقرأ عن الله الذي حدَّد علاقته بالبشرية بواسطة الناموس، والله الذي يحيا بيننا كإنسان.** ولذلك تجد أن غالبية المسيحيين لا يقرأون العهد القديم ويجدونه كتاباً صعباً جداً، بينما يجدون العهد الجديد سهلاً؛ لأنه يشرح حياة إنسان عاش بيننا، وكانت حياته هي إعلان عن الله. فالعهد الجديد يهدف إلى قيادة الإنسان إلى الله.

التجسُّد والكتاب المقدس

إبراهيم: وهل معنى هذا أن الكتاب المقدس يقف عمله بمجرد أن يتعرف الإنسان على المسيح؟

جرجس: الجواب .. بالنفي قطعاً؛ لأن عمل الكتاب المقدس ينتهي يوم الدينونة عندما يرى الإنسانُ اللهَ، فلا يحتاج إلى كتاب يساعده على معرفة الله.

إبراهيم: هل تعتقد أننا سنرى الله في يوم الدينونة؟

جرجس: نعم .. سوف نراه .. ورؤيتنا لله في يوم الدينونة وبعده هي أحد أسباب خلق الإنسان، بل هي أحد أسباب التجسُّد. ولذلك أنا مندهش من الذين يشعرون أن التجسُّدَ مستحيلٌ، ومع ذلك يؤمنون أن هناك حياة

بعد الموت .. إنني أرى في هذا تناقضاً غريباً؛ لأننا إذا حُرِمنا من رؤية الله، وحُرِمنا من معرفته، فكيف سنعيش في الحياة بعد الموت إلى الأبد؟

إبراهيم: ربما أنت على صواب .. ولكن ما قيمة رؤيتنا لله؟ ألا يكفي أننا سننال كل شيء نريده في الجنة؟

جرجس: هذه نقطة أساسية .. وأعتقد أن الذين يرفضون معرفة الله هم الذين يفكِّرون في كل ما يشتهون في الجنة، ويجدون في الحياة بعد الموت تعويضاً عن معرفة الله. إمَّا أن نصل إلى الله، وبالتالي نصل إلى كل شيء .. وإمَّا لا نصل إلى الله، وبذلك نفقد كل شيء.

إبراهيم: لماذا هذا التصعيد والتعقيد.

جرجس: أيُّ تعقيد!! المسألة لا تقبل الهزار .. يمكنك أن تنال كل ما تريد من نساء وأموال وبيوت .. الخ، ولكن هذا لن يكشف عن غاية خلقك كإنسان.

يا سيِّدي الإنسانُ مخلوقٌ لكي يتعرَّف على خالقه، وإلَّا لماذا خُلِق؟ كان خيراً له لو ظلَّ عدماً مِن أن يخلق، ثم يحاط بكل الظروف والخيرات المادية ونمنع الله عنه، أو بالحري نتصور أن الله يمنع نفسه عن الإنسان.

أمَّا الكارثة الكبرى، فهي أن ما سنحصُل عليه سيظل معنا إلى الأبد. تصوَّر أن كل ما سوف تصل إليه يدك لن يتغيَّر، والنتيجة هي السأم والملل الأبدي. إن جهنم في اعتقادي فيها كل الخيرات، ولكن ليس فيها معرفة الله. وسوف تكون النتيجة أنْ يصاب الإنسان بالملل الأبدي. سوف يتحول إلى وحشٍ سجين؛ لأنه فَقَدَ نبع السلام والفرح، وهو الله.

إبراهيم: ولكن ما هو الدليل على أننا سنرى الله في الحياة الأخرى؟

جرجس: الدليلُ مبنيٌّ على الإيمان بكرامة الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن غاية خلقه هي معرفة الله. ألا ترى معي أن خلق الإنسان على النحو الذي تراه، يستدعي الإيمان بأن الله يجود على الإنسان بأن يعرفه؟ .. ألا ترى أنه من القسوة التي

لا تتفق مع صلاح الله بالمرة، أن يحرم اللهُ الإنسانَ من علاقةٍ خاصةٍ به؟

إبراهيم: قسوة؟؟

غاية خلق الإنسان

جرجس: نعم.. لقد جاء الإنسان من العدم إلى الوجود، ولن يسمح الله له بأن يعرف خالقه، فما هي غاية خلقه؟

إبراهيم: أن يعبد الله .. لماذا لا ترضى بعبادة الله؟

جرجس: ماذا تعني بعبادة الله؟

هل تعني تلك الصورة الرهيبة: سيدٌ قاسٍ يتلذذ برؤية عبيده وهم يسجدون له كل يوم، ويقدِّمون له فرائض الطاعة؟ ألا ترى أن هذه صورة سياسية عن الله، وأنها مشتقة من واقع الحياة السياسية، وليس لها أي أساس ديني بالمرة .. ومع ذلك، فإني لا أستطيع أن أعبد الله، ما لم تتوفر لي معرفة هذا السيد الذي لا يرضى بأي علاقة أخرى مع الخليقة غير علاقة السيادة.

إبراهيم: ما هي العلاقة التي تُرضي تصورك غير السياسي يا صديقي؟

جرجس: علاقة المحبة وحدها هي العلاقة التي تليق بالله. أمَّا أي علاقة أخرى، فهي علاقة سياسية تستمد مقوماتها من الحياة البشرية. والذين يحبُّون العبودية ويفضِّلونها على المحبة، يفرض عليهم تركيبهم النفسي والاجتماعي، العبودية.

إبراهيم: ولكن المحبة علاقة بشرية تستمد مقوماتها من الحياة البشرية.

جرجس: والعبودية أيضاً هي صورة بشرية دنيئة. ومع أن المحبة هي أيضاً صورة بشرية، لكنها أسمى بما لا يقاس. وأنا لا أعني العواطف فقط، وإنما أعني المحبة التي تعطي دون مقابل، والمحبة التي لا تتغير ولا تتزعزع. وما المحبة في حياة الإنسان سوى إشعاعٌ من الله، وهذا الإشعاع ينعكس على الحياة

البشرية. فإذا كنا نؤمن بمحبة الله؛ فلأن الإنسان لديه قبَسٌ منها. وإذا كنا نؤمن برحمة الله؛ فلأننا نرى قبساً منها في حياة الإنسان يتجلّى في محبة الوالدين والزوجة والأبناء، والأصدقاء والأقرباء.

إبراهيم: المحبة عواطف سامية، ولكنها لا تخلو من العواطف الجنسية، وهذا لا يليق بالله.

ما هي المحبة؟

جرجس: وهل توجد عواطف جنسية في محبة الوطن؟ وما هي العواطف الجنسية في محبة المعرفة؟ ألا ترى أن محبة الحقيقة لها ثمنٌ رهيبٌ وباهظٌ يدفعه الإنسان عندما يضحّي بكل ما لديه من صداقات وعلاقات في سبيل ما يعتنقه من مبادئ ... أليس كذلك.

إبراهيم: نعم ...

جرجس: وهكذا محبة الله .. لماذا تتصورها عواطف ثائرة ملتهبة؟ الله ليس له جهاز عصبي مثل الإنسان.

ابراهيم: آسف ... إنني أكاد أسخر منك وبشدة .. لقد قلت الآن إن الله ليس إنساناً، ونحن نتحدث منذ ساعة تقريباً وأنت تحاول إقناعي بأن الله صار إنساناً.

جرجس: إنني لا أريد أن أقنعك بأن الله تحوَّل أو تغيَّر وفَقَدَ كيانه، فالتحوُّل لا يتفق مع طبيعة الله. وإذا تحوَّل اللهُ إلى إنسانٍ، أصبح التجسُّدُ مستحيلاً.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: التجسُّدُ هو بقاءُ الله كما هو دون تغيُّرٍ مع اتحاده بالنفس والجسد، وبقاء النفس والجسد كما هما دون تحوُّلٍ إلى اللاهوت.

إبراهيم: إذا اتحد الله بالنفس والجسد، فهل ستكون له عواطف بشرية مثلنا؟

جرجس: إذا قرأنا الأناجيل وجدنا أن العواطف البشرية السامية ظاهرة بكل وضوح

في حياة السيد المسيح، لا سيما في الفترة التي عاشها منذ ميلاده إلى أن صُلِبَ، ولكن بعد قيامته من الأموات لم تعد له هذه العواطف والمشاعر. وعموماً، إن التجسُّدَ يقدِّم لنا صورةً كاملةً عن العواطف السامية للإنسان. ولكن ما هي العلاقة بين المحبة والعواطف؟

إبراهيم: أليست المحبة هي العواطف؟

جرجس: بكل تأكيد لا .. لقد وَصَفَ أحد تلاميذ المسيح المحبةَ بأنها «لا تطلب ما لنفسها». فالمحبة تتعارض مع عواطف التسلط والامتلاك؛ لأن العاطفة تسعى إلى منفعة الإنسان والاهتمام بأموره الخاصة. ولكن المحبة تعلِّم الإنسان أن يعطي، وهذا ضد عواطف الامتلاك.

وفي وصفٍ آخر لنفس الرسول يقول: إن المحبة «لا تظن السوء»، وهذه ليست عواطف بالمرة؛ لأنها تفترض تفضيل الآخرين على أنفسنا ... المحبة كما نراها في المسيحية، أي في المسيح يسوع نفسه، هي طريق البذل والتضحية .. إنها ليست مشاعر رومانسية حالمة أو نوع من المتعة، بل هي عطاءٌ بلا حدود وبلا قيود. وعندما تتخطى المحبة حدود الذات، وهو ما يعبِّر عنه رسول المسيح بقوله إن «المحبة لا تطلب ما لنفسها»، فإنها تصبح قبساً من الصليب نفسه. ولذلك، لم تكن عواطف المسيح مثل عواطف إنسان عادي ثائرة أو خامدة، أو هي مزيج من الاثنين، بل كانت هي عواطف المحبة الحقيقية.

إبراهيم: إنك تتناقض مع نفسك. لقد أنكرت أن المحبة هي العواطف، وها أنت تعود لتؤكد أنه توجد عواطف للمحبة.

جرجس: نعم. المحبةُ ليست عواطف، ولكنها ليست بلا عواطف. وهذا يشبه إلى حدٍ كبير مَن يقول إن العقل ليس هو الإنسان، وهذه العبارة لا تعني بالمرة إن الإنسان بلا عقل. المحبة ليست عواطف، ولكنها هي منبع ومصدر العواطف الصحيحة. والجدل الذي يثور اليوم في الأدب وعلم النفس حول طبيعة المحبة هو جدلٌ يستحق الدراسة.

التجسُّد والمحبة

إبراهيم: إذا كان التجسُّد هو تعبير عن المحبة .. فلماذا لا يقتنع به الناس؟

جرجس: طبعاً يوجد مَن يؤمن بالتجسُّد ... وأنا واحدٌ منهم، وعدد الذين يؤمنون بالتجسُّد يزيد عن عدد الذين لا يؤمنون به. وعدم اقتناع الناس ليست مشكلة. ها أنت نفسك كلَّما تحدثت عن الله وصفته بما يمكن أن يوصف به الحاكم أو رجل الحرب، وهي أوصاف لا تنطبق على الله، بقدر ما هي تنبع من الفكر السياسي .. ولذلك أريد أن أسألك سؤالاً هاماً عن حقيقة شعورك نحو الله والإنسان: هل تؤمن بعظمة الله وعظمة الإنسان في نفس الوقت؟ أم أنت تؤمن بعظمة الله فقط؟ .. وإذا كنت تؤمن بعظمة الله فقط، فهل يمكن أن يكون الله عظيماً بدون الإنسان؟

التجسُّد يعلن عظمة الإنسان

إبراهيم: اعتقد أننا نتفق على أن الله عظيمٌ. ولكن تبقى المشكلة: لماذا نربط بين عظمة الله وعظمة الإنسان؟ أنا لا أرى هذه العلاقة مطلقاً .. إن الله عزَّ وجلَّ مستقلٌ تماماً عن الإنسان، يمكنه أن يكون عظيماً بدون الإنسان. والربط بين عظمة الله وعظمة الإنسان هو خطأٌ فادح.

جرجس: الله بلا شك عظيمٌ في ذاته .. ولكن هذه العظمة لا يقدِّرها إلهٌ آخر، بل تقدِّرها الخليقة التي منها الإنسان. ولا شك أن عظمة الله أزلية وقبل خلق العالم وكل ما فيه .. والرأي عندي أن عظمة الله الأزلية صارت بعد خلق العالم وبعد ظهور الإنسان إلى الوجود، موضوع تأمل وتقدير.

إبراهيم: الخليقة؟! إنني أهزأ من كل إنسان يربط بين الله والخليقة.

جرجس: يمكنك أن تهزأ كما تشاء، ولكن الله بدون الخليقة هو إله العزلة الذي لا نعرف عنه شيئاً والذي لا يمكن الكلام عنه. ومن الأفضل أن نتكلم

عما هو معروفٌ وظاهرٌ. وقد انعكست عظمة الله على الإنسان، وأصبح من الممكن أن ترى عظمة الله في المعامل والمطارات وقاعات المكتبات والجامعات ومراكز البحث العلمي. هذه هي عظمة الإنسان التي أرادها الله له .. والإيمان بالله كخالق لا يتناقض بالمرة مع الإيمان بأن خليقة الله عظيمة القدر. والمشكلة في الإيمان بالتجسُّد هي مشكلة الاعتقاد بحقارة الإنسان إلى حد إنكار كل الهبات والعطايا الإلهية التي مُنِحَت له ... مَن هو الإنسان؟

إبراهيم: لا أدري ... لقد وُصِفَ بأنه دورة مياه متنقلة مثلاً.

جرجس: ولكن مَن هو الإنسان؟

إبراهيم: قلت لك لا أدري .. ولست أجد في الكتب الدينية مَن يمكنه أن يعرِّف الإنسان.

جرجس: هذه مشكلة خطيرة جداً. أن تقدم تعريفاً لله بدون تعريف للإنسان.

إبراهيم: نحن لا نُعرِّف الله؛ لأن الله فوق كل التعريفات.

جرجس: إذا صح هذا، فلماذا تنكر عليه التجسُّد؟ إن إنكار أي شيء يعتمد أصلاً على موقف محدد وعلى مصطلحات وعلى تعريفات ثابتة. وإذا كنت لا تعرف كيف تصف الله، فهذا موقف خطير جداً؛ لأنك معرَّضٌ لأنْ تصفه بما تشاء.

إبراهيم: الله فوق كل الأوصاف ولا يجوز أن نصف الله أو نشبِّهه؛ لأن هذا يؤدي إلى الكُفر والشِّرك.

جرجس: ولكن عدم وصف الله يمكن أن يؤدي إلى الإلحاد أيضاً. وفي النهاية لا فرق بين مَن لا يؤمن بالله ومَن لا يعرف الله. لأن امتناعك عن وصف الله، لا يعطي لك الحق بالمرة في نقد أو رفض إيمان الآخرين.

إبراهيم: سبحان الله. نحن نعرف الله ونؤمن بما أنزله من كتب مقدسة، ونعرف عنه

أنه واحدٌ ولا شريك له .. وله أسماءٌ وصفات، فهل هذا إلحاد يا صديقي؟

جرجس: ظاهرياً لا. ولكن عملياً، كلما أردنا أن نصف الله وأن نتحدث عنه تمتنع أنت خوفاً من الشِّركِ أو الكُفر .. وهذا موقفٌ عجيب ومحيِّر جداً ...

إبراهيم: كيف؟ ... أنا لا أريد أن أضع الله في مستوى المخلوقات، ولا أريد أن استخدم في الحديث عنه أي عبارات أو كلمات كتلك التي تُستخدم في الحديث عن الكائنات، فهذا نوعٌ من الشِّرك .. بينما تنزيه الله عن الأوصاف والتشبيهات هو إيمانٌ سامٍ لا تدركه أنت.

جرجس: يا صديقي، إنك تصف الله رغم ذلك بأوصاف بشرية، من ذلك أن الله واحد، وهي عبارة بشرية محضة. وكلمة واحد يمكن أن تطلق على الإنسان أو الجماد. وكل الكلمات المستخدَمة في وصف الله لها ما يقابلها في استعمالات الإنسان للحياة الإنسانية والنباتية والحيوانية وغيرها ... لماذا تضع قدمك على أول السُّلَّم ولا تصعد؟

التجسُّد ولغة الوحي

إبراهيم: لأن السُّلَّم الذي تريدني أن أصعد عليه هو سُلَّمٌ يؤدي إلى وصف الله بكل أوصاف البشر .. والله منزَّهٌ عن مثل هذه الأمور.

جرجس: يا صديقي .. إنك تتحدث عن الله مع البشر ومن أجل البشر، ولذلك فكل ما تقوله عن الله يجب أن يكون في متناول العقل البشري، وإلَّا استحال علينا أن نتحدث عن الله أو حتى الإيمان به .. وقد قلت سابقاً لا يوجد فرق بين مَن لا يؤمن بالله ومَن لا يريد أن يصفه. وأنت لا تريد أن تصف الإنسان ولا تريد أن تتعرف عليه .. وما يحيرني حقاً هو إذا لم تكن للإنسان صفاتٌ ثابتةٌ ومعروفة ورسالات صالحة لكل الأزمان والعصور، ألا ترى أن هذا تناقض خطير؟

إبراهيم: كيف؟ ... وأين التناقض؟

جرجس: يا صديقي .. إذا كان الله قد أعطى كلامه للأنبياء، فقد فعل ذلك لأن له طبيعة إلهية، ولأن الإنسان له طبيعة إنسانية. وإلَّا لماذا الوحي؟ وعن أي شيء يتحدث الوحي؟ لابد وأننا نحن البشر نشترك في صفاتٍ عامةٍ تجعل رسالة الوحي ممكنة وصالحة للمجتمع البشري .. وإذا لم يكن لنا ما يمكن وصفه بالطبيعة الإنسانية، فإن النتيجة الحتمية هي لا وحي. ولكن لأن البشر يشتركون في صفاتٍ عامةٍ، أمكن الكلام عن الله بواسطة الوحي.

إبراهيم: أنت تربط بين قضايا شائكة بشكلٍ خطير ومثير. أنني ألمح لماذا تريد تعريفاً لطبيعة الله وطبيعة الإنسان، لكي تعود إلى موضوعك المفضل وهو التجسُّد ..

جرجس: أنت على صواب .. إن التجسُّد يعتمد على حقيقة الإيمان بأن الطبيعة التي يشترك فيها كل البشر هي صورة الله.

إبراهيم: هذا التعبير «صورة الله» مهما دافعت عنه، ومهما حاولت أن تبرره، هو تهديدٌ خطيرٌ لعزَّة الله وجلاله.

جرجس: أعتقد أن العكس هو الصحيح؛ لأن الحديث عن صورة الله في الإنسان هو تأكيدٌ لعزَّة الله وجلاله .. وهل هناك أفضل من الإنسان الذي يُشرق بمجد الرحمن .. ووُصِفَ بأنه خليفة الله على الأرض.

إبراهيم: ولكن الله يا صديقي ليس مرئياً، فكيف يمكن أن يكون الإنسان صورة الله؟

جرجس: حقاً الله ليس مرئياً، ولكن ماذا لو قلنا: إن مَن يريد أن يعرف شيئاً عن الله يمكنه ذلك بالتطلع للإنسان؟ .. فالإنسان هو صورة معنوية، أي الصفات والقدرات وليس العضلات والعظام.

إبراهيم: لا بأس.

جرجس: وأيضاً يمكن أن تقول إن العالم بكل ما فيه من نجوم وأفلاك هو صورة لقدرة الله الفائقة .. هل لديك اعتراضٌ على هذا؟

إبراهيم: لا .. ولكن لماذا الإصرار على كلمة صورة؟

التجسُّد وصورة الله في الإنسان

جرجس: أولاً: لأنها أُعلنت من الله نفسه في حديثه عن خلق الإنسان، حيث قال في سفر التكوين: «نخلق الإنسان على صورتنا كشبهنا».

ثانياً: لأن الصورة تؤكِّد وجود علاقة أساسية كيانية بين المنظور وغير المنظور. أي بين ما هو ظاهرٌ في عالم الحس والمادة وبين ما هو خفيٌّ في عالم الروح .. ويمكن أن نقول هذا في عبارة واحدة: «إن الله خلق الإنسان على صورته، بمعنى أن حقيقة وجود الإنسان وحياته تعتمد على الله، ويكتشف الإنسان أصله في الله. فكل ما في الإنسان ينتمي إلى الأصل غير الظاهر وهو الله». أو بلغة العصر الحديث، الإنسان هو المشروع الظاهر المرئي الذي يعلن عن عقل المهندس البارع.

إبراهيم: وما قيمة هذا الاعتقاد؟

جرجس: القيمة كما تبدو لي هي أن الإنسان يتطور وفق العلاقة بين الصورة والأصل. ولما كانت العلاقة هي علاقة بين أصلٍ، هو الله، وصورةٍ، هي الإنسان .. فإن الإنسان كلما عاد وتطلَّع إلى الأصل، أي الله، اكتشف ذاته واكتشف مستقبل حياته. وكلما تطلَّع إلى ذاته، رأى فيها مجد الله أيضاً وأدرك شيئاً عن ذاته.

إبراهيم: لكن الحديث عن الأصل والصورة يتضمن الإشارة إلى إمكانية تحول الإنسان إلى إله .. أليس هذا تخريفاً؟

جرجس: لستُ أجد هذه الإشارة الضمنية التي تتحدث عنها .. ولكنني أعرف أن الخالق يظل خالقاً، والمخلوق يظل مخلوقاً، ولا يمكن أن يتحول الله إلى مخلوق، ولا الإنسان إلى خالق .. أُحب أن أسألك: لماذا أنت حسَّاس بهذه الدرجة لكلمة «صورة»؟

إبراهيم: ربما لأنني لست معتاداً على سماع هذه الكلمة، وربما لأنها كلمة حسّية فيها

المادة والشكل، وهذه أمور لا يجب أن تُنسب إلى الله.

جرجس: هذه المخاوف جيدة جداً، ولكنها لا يجب أن تلغي المعنى الصحيح والهام لكلمة «صورة» .. ثم لماذا لا تفكر في مجموعة مكونات لصورة الله في الإنسان مثل الحرية والإرادة والفكر؟ هذه هي عناصر الصورة الإلهية.

إبراهيم: ولكن الحرية والإرادة والفكر أمورٌ غير مادية .. فلماذا تسميها عناصر الصورة الإلهية؟

جرجس: أنت على حق. ولكن من المهم جداً أن ندرك أن هدف خلق الإنسان هو أن يتطور وينمو. وأن هذا التطور والنمو له نموذج أو أصل يتطلع إليه الإنسان .. إنني لا أجد في كل الكلمات التي عرفتها البشرية ما هو أفضل من كلمة «صورة»، فهي تعبِّر عما يلي:

أولاً: العلاقة بين المنظور وغير المنظور .. فليس عالم المادة غريباً عن عالم الروح، والإنسان هو الصلة بين العالَمين؛ لأنه يجمع المادة والروح في ذاته وسيظل كذلك إلى الأبد .. ولأنك تؤمن مثلي بقيامة الجسد، وجسد القيامة -أياً كان- سيظل جانباً أساسياً في كيان الإنسان، ولذلك نحن نعتقد أن الإنسان هو همزة الوصل بين المادة والروح، يحمل في ذاته ما يجعله أهلاً لأن ينقل إلى عالم المادة كل معالم الحياة الإلهية أو الروحية التي أُعطيت له. وعندما يتطلع الإنسان إلى الله ويتمثَّل به في الحياة والإرادة والفكر والحرية، فإنه يعود لكي ينقل إلى عالم المادة ما تلقَّنه من الله.

ثانياً: إن الصورة تشرح أيضاً معنى الصلاة .. وعبادة الله. وهنا الإنسان لا يصلي إلى آخرٍ غريبٍ عنه، بل يتطلع إلى الأصل الذي يحاول أن يتمثل به والذي له ملامح ظاهرة فيه.

ثالثاً: إن صورة الله تشرح لنا ما هو الخير وما هو الشر. فالإنسان إذا أخطأ في التشبُّه بالله، فهذا هو الشر والانحراف عن الأصل، وإذا تشبَّه بالله

صارت حياته كلها خيراً.

رابعاً: إن هذا التعليم يتضمن تأكيد المساواة الكاملة بين البشر في نظر الله، ويجعل الاعتداء على أصغر إنسان هو اعتداءٌ على صورة الله. وقد ذَكَرَ أحد تلاميذ المسيح في حديثه عن بشاعة الشتيمة: «باللسان تُبارِك الله وبه تلعن الناس الذين خُلِقوا على صورة الله»، وهكذا تجد أن الشتيمة هي تحقيرٌ لله نفسه لأنها امتهانٌ للكرامة التي أعطاها للإنسان.

خامساً: إن كلمة «صورة» تشرح أيضاً العلاقة المستقبلية بين الله والإنسان، وتفسّر بشكلٍ واضحٍ معنى الحياة الأبدية كفرصة متاحة أمام تطور إمكانيات الصورة الإلهية في الإنسان، وهو ما يجعل الشركة بين الله والإنسان أعمق بكثير مما نظن لو كان الإنسان مخلوقاً لا يحمل صورة الله. ومجرد الإيمان بأن الله سيجعل الإنسان حياً إلى الأبد، هو اعترافٌ بأن الإنسان نال ملامح الأبدية من الله، أي هو صورةٌ له.

إبراهيم: إذن، هذا هو أساس المسيحية؟

جرجس: نعم.

إبراهيم: وإذا تمكّن أيُّ مفكّر من هدمه، ألا يعني هذا أنه هدم المسيحية؟

جرجس: أوافقك .. مع تصحيح واحد .. أنه لم يهدم المسيحية، بل هدم الإنسان ..

إبراهيم: كيف؟

الإنسان كمشروع

جرجس: المسيحية تقدّم هذا المشروع الضخم للإنسان ولأجل الإنسان، وهي تقول: إن الله وضع كل إمكانيات نجاح هذا المشروع، فلماذا تريد أن تهدم هذا المشروع .. إن هدمه معناه إما أن يكون لديك مشروعٌ آخر أفضل منه، وإما أنك تسعى إلى هدم الإنسان دون أن تدري.

إبراهيم: أوافقك على ما تقول .. وإنني أريد أن أدرس بعمق أكثر، الديانات لكي أرى ما هو المشروع الأفضل من مشروعك.

جرجس: إذا وجدت، فإني مستعد أن أشاركك اعتقادك.

إبراهيم: ولكن ما هي علاقة موضوع الإنسان كصورة الله بالتجسُّد؟

جرجس: بشكلٍ مباشرٍ، هو أن الله عندما تجسَّد، لم يبتعد كثيراً عن ذاته. لقد اتخذ الطبيعة البشرية المخلوقة على صورته، فهو لم يكن بعيداً بالمرة عن ما يخصه أصلاً.

إبراهيم: لقد تكامل كُفرُك .. وظهر فساد إيمانك .. حاولت أولاً أن تقنعني أن الله محبة، ثم حاولت أن تقنعني بكرامة الإنسان كصورة الله، ثم الآن تحاول أن تقنعني بأن الله تجسَّد وصار إنساناً لأن الإنسان أصلاً ليس بعيداً عن الله ولا غريباً.

جرجس: بأي شيءٍ كفرتُ؟ هل كفرت بالله كخالق؟ لا .. هل كفرت بكرامة الإنسان أو بخليقة الله؟ لا .. هل عزلت الله عن مخلوقاته على النحو الذي تريده أنت؟ لا .. لماذا تخاف على الله بهذا الشكل؟

إبراهيم: أنا لا أخاف عليه لأنه قادرٌ أن يدبِّر أموره، بل هو يدبرها فعلاً ويدبِّر أمورنا أيضاً، ولكنني أخاف عليك من العقاب الذي سينزل بك.

جرجس: الخوف من العقاب جيد .. ومطلوب .. ولكنه لا ينشئ علاقة مع الله، بل هو طابع العلاقة بين السيد والعبد.

علاقة السيد والعبد

إبراهيم: وهل أنت تنكر أن الله سيدٌ، ونحن عبيد؟

جرجس: لا .. لكن للسيادة والعبودية عدة أشكال وأنواع، فهناك سيادة مع رحمة وصلاح، وسيادة مع قوة وبطش واستبداد. وكذلك هناك عبودية فيها

التفاهم والإدراك، وعبودية فيها الاستسلام المطلق لإرادة السيد وفقدان الحرية تماماً .. ويمكننا أن نعدد أنواعاً أخرى .. وفي علاقتنا مع الله هو سيدٌ لنا؛ لأن كل أمورنا تأتي منه وتعود إليه وبيده كل شيء، ولكنها ليست سيادة سياسية فيها البطش والطغيان والاستبداد.

إبراهيم: إذن، كيف ينسجم كلامك عن تجسُّد الله، وعن سيادته على الخليقة؟

جرجس: إنَّ التجسُّد ليس محبةً فقط، بل هو إعلان لسيادة الله على الإنسان .. لأن الله بعد أن تجسَّد، أعلن عن رغبته في أن ينقل الإنسان من محنة الخطية بشكلٍ يجعل الإنسان غير قادر على أن يرفض سيادته، وهنا تصبح السيادة سيادة المحبة بكل ما فيها من قوة.

إبراهيم: سيادة المحبة! هل للمحبة سيادة؟ إن المحبة لا تسود، بل القوة هي التي تسود.

جرجس: هذا غير صحيح مطلقاً .. إذا كنت تفهم القوة بأنها البطش وقهر الخصم، فهذا الشكل من القوة لا يجب أن يُنسب لله؛ لأن هذه هي قوة الضعفاء والعاجزين. أمَّا المحبة فهي تصبر وتغري وتتودد حتى تقنع الخصم .. إنني أذكر قصة الهندي الذي قتل زوجته وذهب ليخبر طاغور شاعر الهند .. فقال له طاغور: لقد قتلت زوجتك، وبذلك صارت في مأمنٍ أبديٍّ، ولن تمد إليها يدك بعد الآن بخيرٍ أو بشر.. أي أنها انتصرت عليك .. وكان الأجدر بك أن تحاول أن تغريها وأن تقنعها بفكرك وآراءك. هذه هي المحبة، إنها قوية جداً .. ووصفها سليمان الحكيم بأنها قوية مثل الموت، أي لا يمكن الهرب منها. أنك على ما يبدو تحب القوة وتعبدها، وهذا خوفٌ يكشف عن طبعٍ لا يقدِّر الفكر ولا يعطي للعقل أيَّ مكانةٍ.

إبراهيم: هذا غير صحيح؛ لأنني كما ترى أُحاورك وأُجادلك ولست أعتقد أنني لجأت إلى القوة. كل ما في الأمر أن معظم ما تقوله جديد وغريب على مسامعي. ولذلك، إذا كنت أنت تدافع عن التجسُّد، فلماذا كانت الحاجة إليه .. هل هو مجرد تعبير عن محبة الله فقط؟

جرجس: لا .. بل هو أيضاً الطريقة الإلهية الوحيدة لعلاج خطية الإنسان.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: صبراً .. لقد قلت إن الله خلق الإنسان على صورته، وقلنا إن الاحتفاظ بصورة الله يعني بقاءِ الإنسان على علاقة دائمة بالله، أي أنه لن يحقق غاية وجوده إذا انقطعت العلاقة بينه وبين الله. ولذلك عندما انحرف الإنسان عن غاية وجوده، فَقَدَ الحياة مع الله. وعندما فَقَدَ الحياة مع الله، دخله الفساد والموت. وقد حدث هذا لآدم ومنه انتقل الموت والفساد إلى ذريته.

خطية آدم

إبراهيم: هذا ما تسمونه بالخطية الأولى أو خطية آدم .. وأنا أعترض على فكرة وراثة الخطية .. لأنه لا يوجد دليلٌ واحدٌ على أن الإنسان يرث أفعال الذين عاشوا قبله.

جرجس: هذا حقٌّ .. نحن لا نرث ما فعله آدم .. أي ذات الذنب، بل ورثنا نتائج هذا الذنب .. وهذا يشبه إلى حد كبير رجلٌ بدَّد ثروته، فنشأ أولاده في فقر وعوز .. وهو ما نراه دائماً أمام عيوننا في الحياة.

إبراهيم: هذا معقول .. ولكن وراثة الأفعال هذه فكرة غير صائبة؛ لأنها تجعل الإنسان يسأل دائماً: ما هو ذنب ذرية آدم؟

جرجس: في الحقيقة إن الإنسانية لم تدرك بعد أن كلَّ شخصٍ على حدة، يجمع في نفسه الآخرين بشكلٍ ظاهرٍ .. وكل شخصية إنسانية هي شخصية جامعة، ولذلك، كل ما يطرأ على أي إنسان يمتد أثره إلى غيره، سواء كان خيراً أم شراً.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: إن أيَّ شخصٍ لا ينمو كفردٍ بشكلٍ مطلق، بل تساهم الجماعة كلها في

نموه .. الأسرة والمجتمع وكل الذين يتصلون به، فهو يأخذ اللغة والأفكار والمعتقدات من الذين حوله. يتأثر بهم في كل شيء ويؤثر فيهم أحياناً. وما لم ندركه نحن البشر، هو أن الوحدة البشرية موجودة رغم إنكارها .. ومهما أنكرنا، يظل كل فردٍ خلية في جسم الإنسانية الكبير يتأثر بما حدث لغيره شاء أم أبى.

إبراهيم: هل تعني بهذا أنه لا يوجد استقلال لكل فرد عن الآخر، وأننا مثل خلايا في جسد؟

جرجس: لا أدري معنى كلمة استقلال .. هل هي تعني العزلة؟ أم تعني أن كل إنسان قائمٌ بذاته .. إذا كانت تعني العزلة الكاملة، فهذا خطأ؛ لأن الفرد المنعزل تماماً عن الناس لا وجود له في الواقع .. وإذا كانت تعني أن كلَّ إنسان قائمٌ بذاته، أي لا يعتمد على غيره من الناس في الوجود وفي الحياة، فهذا مقبولٌ إلى حدٍّ ما.

إبراهيم: طبعاً إن الإنسان لا يعتمد على غيره من الناس في الوجود والحياة، ولكنه يعتمد على الله سبحانه وتعالى. أرجو ألَّا تكون من الذين ينكرون ذلك.

جرجس: طبعاً لا .. ولكن ماذا تعني باعتماد الإنسان في وجوده وحياته على الله؟

إبراهيم: أعني أن الإنسان يستمد وجوده من الله.

جرجس: ما معنى يستمد وجوده من الله؟

إبراهيم: أي أن الوجود أُعطيَ أو وُهِبَ للإنسان.

جرجس: فقط ..؟

إبراهيم: طبعاً .. ولا شيء غير ذلك ..

جرجس: هذا محيِّرٌ حقاً .. هل تعلم لماذا يسأل الإنسان دائماً ذاته عبر كل العصور: مَن أنا؟

إبراهيم: لأنه يحاول أن يدرك وجوده.

جرجس: هل تعلم لماذا يحاول أن يدرك وجوده؟ ولماذا هذا الإلحاح الشديد والبحث الدائم عن إجابة لهذا السؤال؟

إبراهيم: أعتقد لأنها فطرة أو عادة في الإنسان.

جرجس: لا .. ليست فطرة، إنما لأن الإنسان يُولَد في هذه الدنيا وهو يجهل الله .. يُولَد مقطوع الصلة بالله، ولذلك يسأل نفسه: مَن أنا؟ لماذا أنا موجود في هذه الحياة؟ كل هذه الأسئلة تعبِّر عما نسميه في اللاهوت المسيحي «سقوط آدم»، أو «سقوط الإنسانية» .. لأن الإنسان الذي يعرف الله معرفةً حقةً، يمكنه أن يكتشف أن الله هو أصل وسبب وجود كل الكائنات، وأن الإنسان يستمد كيانه من الله، أي أن الإنسان ليس كائناً بذاته، بل كائنٌ بالله، بمعنى أنه مخلوق، وأن سبب وجوده هو الله. ولكن من الثابت أن الإنسان –حتى المتدين، والذي له معرفة بالله كخالق– يمر بلحظات قلقٍ وخوفٍ وحيرةٍ، ويرى أن الإيمان بالله غامضٌ جداً، بل يسأل كثيراً عن سبب ومعنى وجوده. وهذا كله يدل على أن انقطاع علاقة الإنسان بالله هو حقيقة.

التجسُّد وعلاقتنا مع الله

إبراهيم: كيف تعرف الله وتقول أنت إن هناك ما يدل على انقطاع العلاقة بالله كالقلق الوجودي والتساؤل عن معنى وهدف الوجود؟ ألا ترى تناقضاً في هذا؟

جرجس: معرفة الله شيء، والعلاقة مع الله شيء آخر.

إبراهيم: لماذا هذا التمييز؟

جرجس: من الجائز أن يعرف الإنسان الله، ولكن العلاقة مع الله قائمة على طرفين: الله والإنسان .. ولذلك إذا كان لدى الإنسان أي معرفة بالله، فهذا لا يعني حتمية قيام علاقة بين الاثنين.

إبراهيم: هذا صحيح ..

جرجس: وبالتالي ليست القضية محصورة في قدرة الإنسان على أن يقيم علاقة بالله، بل في تنازُل الله والقيام بدور فعال في سبيل تأسيس هذه العلاقة.

إبراهيم: اتفقنا. وهذا يؤكد دور الوحي الإلهي وأهميته بالنسبة للإنسان؛ لأنه بدون الوحي لا يستطيع الإنسان أن يتعرف على الله.

جرجس: هذا صحيح بشكل جزئي؛ لأن الوحي يعطي مجموعة حقائق عن الله تساعد الإنسان على أن يعرف الله بشكلٍ سليم. ولكن كما ذكرت أن معرفة الله ليست هي جوهر العلاقة، فالوحي يعصم الفكر البشري من الضلال، ولكنه لا يؤسِّس علاقة متينة بين الإنسان والله.

إبراهيم: يبدو علينا أننا لا نتفق على معنى كلمة «علاقة»؛ لأنك تهزأ بالمعرفة كوسيلة للاقتراب من الله.

جرجس: أنا لا أهزأ بالمعرفة، وإنما أرى أن المعرفة ليست هي المفتاح الرئيسي، وإنما تقَرُّب الله من الإنسان هو المفتاح الرئيسي. الأمر يبدو لي على هذا النحو، أي أنني أتصوره كما لو كان سيداً عظيماً اكتفى في فترة من الفترات بأن يكتب رسائل ومجموعة من الأوامر والنواهي لعبيده، واكتفى بأن تحدَّث مع أحد هؤلاء العبيد عن رسالته، ثم لزم الصمت المطلق.

إبراهيم: أنا لا أفهم معنى هذا التشبيه؟

جرجس: أعتقد أنت تفهمني جيداً؛ لأن هذا التشبيه ينطبق على الوحي. لقد تحدَّث الله مع الأنبياء. لكن هذا الحديث مضت عليه حقبات من الزمان، وأنت كما ترى أن الوحي تكرر عدة مرات مع عدد من الأنبياء، وهذا التكرار يؤكد قصور الوحي عن تقديم معرفة سليمة صحيحة، فعلى الإنسان أن يتصل بالله بشكلٍ مباشر يربط بين حياة الإنسان وحياة الله.

إبراهيم: حياة الإنسان وحياة الله، كلاهما على طرفي النقيض.

جرجس: طبعاً هناك التناقض المطلق بين الإنسان والله، ولكن أيضاً يوجد التشابه

النسبي بين الإنسان والله .. ولو كان التناقض هو وحده الكائن بين الإنسان والله لاستحال وجود الوحي. لماذا يهتم الله بالحديث عن نفسه للإنسان وهو مخلوقٌ يقع على طرف النقيض المطلق؟

إبراهيم: لماذا يوحي الله للإنسان وهو على طرفٍ نقيض؟ هذه مسألة بسيطة جداً؛ لكي يعصم الإنسان من الضلال كما ذكرت.

جرجس: ولماذا يهتم بعصمة الإنسان من الضلال، وهو النقيض الذي لا يُرجى قيام أيَّ تشابُهٍ أو علاقةٍ معه؟ ما هو هدف هذه العصمة، أليس لكي تؤدي إلى علاقة؟ لماذا تهتم أنت بتقويم ابنك أو ابنتك؟ لأنك تشعر بالمسئولية تجاه أسرتك. إن كل ما أخاف منه هو أن يؤدي بك تطرفك إلى إنكار مسئولية الله عن الإنسان.

المحبة وعظمة الله

إبراهيم: وأنا أخاف من مبالغتك في الكلام عن محبة الله إلى الحد الذي يفقد فيه جلاله الإلهي.

جرجس: لست أشاركك هذا الخوف لسبب بسيط. وهو أن الإنسان –مهما فعل– لا يستطيع أن يجرِّد الله من جلاله؛ لأن الله ليس مخلوقاً يقع تحت تأثير الإنسان. الله أعظم من كل الكائنات، بل هذه الكائنات لا معنى لها ولا قيمة لها بدون الله .. أنت تتحرك من موقع الخوف الشديد من الله أو على الله.

إبراهيم: وأنت تتحرك من موقع الثقة المفرطة في رحمته تعالى، وهذا تهور.

جرجس: ولكنك تنزِّه الله عن كل مسئولية، وعن إمكانية مشاركته للإنسان في أي شيء، وهذا يجعل الله في النهاية كمَن خلق الإنسان ثم تخلى عنه.

إبراهيم: لست أرى جدوى تبادل اتهامات على هذا النحو .. لأن هذا يعطل الحوار تماماً .. هل يمكن أن نتمسك بالنقط التي نتفق عليها؟

جرجس: هذا جيد جداً .. ولكنني أخاف من شيء أساسي، هو أن علاقة الله بالإنسان عندك موضوعٌ مبهم أو أنت لا ترغب في دراسته، بينما علاقة الله بالإنسان عندي هي موضوع رئيسي أساسي في فهم الأديان كلها. أنت تريد من الله أن يقف على حافة والإنسان على حافة تفصل بينهما هوة التناقض الرهيب بين الخالق والمخلوق.

إبراهيم: هل أنت تنكر هذا التناقض؟

جرجس: طبعاً لا أُنكره .. ولكن الذي أُنكره هو أنك تحاول أن تجعل هذا التناقض أساس العلاقة. ومنطقياً، لا يمكن أن تكون نقط التناقض أو الاختلاف -خصوصاً- إذا كان الاختلاف مطلقاً، هي أساس لقاء بين أي أثنين، لاسيما بين الله والإنسان.

وقد يحدث أحياناً في عالم السياسة أن يتم لقاء الأضداد رغم التناقض المطلق، خصوصاً عندما يبرز عنصر عدم الرغبة في استمرار العراك، أو ظهور مصلحة مشتركة. لكن بالنسبة للإنسان، فهو مخلوق الله، هو يعتمد اعتماداً كلياً على الله. أي أن مجرد كونه مخلوقاً جعله هذا في وضع من لا يقف أمام المتناقضات التي تفصل بينه وبين الله، بل في وضع من يتيح له الله المشاركة واللقاء، وإلَّا استحال الحديث عن الأديان تماماً أو الله بصورة خاصة.

إبراهيم: حسناً .. أنت في الحقيقة تعتمد على عدة مبادئ، وهذه المبادئ لم نناقشها .. لقد اعتمدت على ضرورة وجود علاقة بين الله والإنسان، ولم تحدد هذه العلاقة. وها أنت الآن تقفز إلى كلمات أخرى مثل المشاركة واللقاء.

جرجس: طبعاً أنت تؤمن بوجود علاقة .. وإلَّا فلماذا تتمسك بالوحي؟

إبراهيم: لأن الوحي هو الطريقة الوحيدة المتاحة للإنسان لكي يتعرف بها على الله ويعبده وفق وصاياه وأوامره وفرائضه.

جرجس: هل فكَّرت يوماً في أنه توجد خلف هذه الصورة عن الله الذي يعطي الأوامر والوصايا صورةٌ أخرى سياسية مأخوذة من مجتمع العبيد والسادة، حيث يجلس السيد في الخيمة وأمام بابها حاجب، فلا يتجاسر أحدٌ على الدخول. وتصبح العلاقة بين السيد والعبيد تتلخص في صدور الأوامر من السيد وسرعة العبيد في تنفيذها. هذه صورة سياسية واجتماعية عن الله. ولذلك، فهي صورة إنسانية تنتمي إلى مجتمع معين يسعى الإنسان جاهداً لكي يتخلص منه.

إبراهيم: وهل لا توجد صورة إنسانية خلف ما تقول عن الإله المفرط في الحنان الذي يرفع كل الحُجب التي تفصل بينه وبين الإنسان، وتصبح هذه الصورة المفرطة في المساواة هي عطش العبيد إلى الحرية، وبالتالي هي صورة مصدرها الحرمان، والإنسان دائماً يتصور الجنة على مثال العناصر التي يشتاق إليها في حياته الأرضية والتي حُرِمَ منها.

جرجس: إذا صح تحليلك، فصورتي عن الله تلهم بالمساواة وتدعِّم البحث عن الحرية. أمَّا صورتك، فهي بدون شك، تساهم في تدعيم القهر والتسلط.

إبراهيم: لقد عُدت إلى تبادل الاتهامات.

جرجس: اعتذر .. ولكن لديَّ حساسية معينة من صورة الله كسيدٍ يقف في مواجهة مخلوق ضعيف مثل الإنسان، لا يملك ذرةً من قوة الله وحكمته مهما ملك .. فكل ما لديه في النهاية هو هبة من الله. إن الحوار عن الله وعلاقته بالإنسان هو حوارٌ يتم في جوٍّ مملوءٍ بالصور والاختبارات التي تعلَّمها الإنسان من البيئة ومن المجتمع. ولذلك على الإنسان أن ينقِّي هذا الجو من الأفكار الخاطئة ومن التصورات التي لا تليق بالله.

إبراهيم: كيف يمكن تنقية هذا الجو واستبعاد الأفكار الخاطئة؟

جرجس: أولاً: بالاعتماد على الوحي.

ثانياً: بالتحليل العقلي الواعي الذي يتعمق في البحث عن الأفكار السائدة وتاريخها وسبب انتشارها.

إبراهيم: هل لديك مثالٌ على ذلك؟

هل يوجد تناقض بين الله والإنسان؟

جرجس: نعم.. وهو السؤال الذي نحن بصدده: هل تقوم العلاقة بين الله والإنسان على تأكيد التناقضات، أم على تأكيد التشابه بين الله والإنسان؟

إبراهيم: لماذا نبحث في الفرق بين التناقضات والتشابه وعلاقتها بالإنسان؟ لماذا لا ندرس سؤالاً آخراً؟ هل يمكن أن تقوم علاقة الله بالإنسان على مجرد الوحي فقط، أم أن هذه العلاقة تحتاج إلى شيء آخر غير الوحي؟

جرجس: بالنسبة لي، لا فرق بين الموضوعين؛ لأنهما في النهاية موضوع واحد.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: ألا ترى أن الحديث عن التناقضات هو تأكيد لوجودها كأساس للعلاقة بين الإنسان والله، يظل كلاهما على طرفي نقيض ولا يدور بينهما سوى حديث.

إبراهيم: هذا صحيح.

جرجس: ثم ألا ترى أن هذا معناه أن يظل التناقض هو المبدأ الأساسي الذي يشكِّل علاقة الله بالإنسان.

إبراهيم: وما هو الخطأ في أن يظل الله هو الله، والإنسان هو الإنسان؟

جرجس: الحق هو أن الله هو الله، أمَّا الإنسان فليس هو الإنسان. الإنسان فَقَدَ إنسانيته، بل هو فريسة الموت والشر. هذا هو الحق. وفي هذه الحالة السيئة لا يمكن أن تكون المتناقضات هي جوهر علاقة الله بالإنسان.

إبراهيم: وماذا عن التشابه؟

جرجس: حسناً. إن التشابه هنا هو أن يعود الإنسان إلى إنسانيته المفقودة. وأن يسترد الحياة غير الفاسدة. وأن تصبح معرفته بالله ليست معرفة نظرية، بل معرفة حقيقية.

إبراهيم: وماذا تعني بمعرفة حقيقية؟

جرجس: أعني أن كل ما يعرفه الإنسان يتذوقه ويدخل في حياته العملية مثل الطب والعلوم والفلسفة، هذه كلها أفكار تساهم في تطوير حياة الإنسان وفي حل مشاكله أو تقدُّمه. أمَّا الله، فلماذا تظل معرفته نظرية لا تتحول إلى حياة تمتزج بحياة الإنسان وترفعه إلى مستوى أفضل من المستوى الذي هو عليه.

إبراهيم: لسبب بسيط .. وهو أن الله ليس موضوعاً في متناول الإنسان. إنه فوق الفكر والخيال. إنه ليس مخلوقاً موضوعاً لخدمة الإنسان، بل هو سيد الإنسان. ولذلك نحن لا نستطيع أن نتصور معرفتنا بالله وقد صارت مثل معرفتنا بالطب والزراعة والكيمياء؛ لأن الله ليس موضوعاً من الموضوعات الذي يدرسها الإنسان في الجامعة.

جرجس: أنا أتفق معك في أن الله ليس موضوعاً يُدرَس، ولكنني أتحدث عن شيء آخر مختلف. الله شخص، وكل معرفة تتكون لدينا عن أي شخص هي معرفة هامة تساعدنا أحياناً على تطوير حياتنا وأفكارنا، وأحياناً العكس. وما أريد أن أقوله هو لماذا تظل معرفتنا بالله مجرد عقيدة نظرية لا تمس الحياة الإنسانية؟

إبراهيم: لست أفهم بالضبط ماذا تعني بمعرفتنا بالله كشخص؟

جرجس: أعني أنني مثلاً تعرفت على صديقٍ يعمل طبيباً، وكانت النتيجة أنني تعلمت الكثير عن الطب من خلال صداقتي بهذا الإنسان، بل تعلمت أن أحترم الأطباء وأُقدِّر عملهم، بل تعلمت الكثير عن الأمراض وكيفية الوقاية منها. فلماذا لا ينطبق ذات الشيء على معرفتنا بالله؟

إبراهيم: لسبب واحد. هو أن الله بعيد عن الخبرة الإنسانية.

جرجس: هذه هي النقطة الأساسية. هل هو بعيد فعلاً؟

عندما طلبت أن أُناقش معك سؤالاً كمثالٍ لما يجب أن يكون عليه الحوار بين شخصين متدينين، كنت أنت تود أن تبحث ما إذا كانت علاقتنا بالله قائمة على الوحي فقط أم أنها تحتاج إلى شيء آخر، وذلك ورغم أنك لم تحدد ما هو هذا الشيء الآخر. وكان رأيي أن حصر العلاقة بين الله والإنسان في الوحي فقط هو تأكيد على أن التناقضات ستصبح هي جوهر العلاقة بين الله والإنسان. وها نحن نعود إلى نفس السؤال، ولكن من طريق آخر، وهو أنك تؤكد أن الله فوق مستوى الاختبار الإنساني، أو أنه بعيدٌ تماماً عن متناول الفكر والشعور الإنساني، أو بمعنى آخر أنك تؤكد بطريق مباشر أن الله على طرف نقيض من الإنسان، ولذلك لا تساهم معرفة الإنسان بالله في تطور الإنسان كما تساهم معرفة الإنسان بالتاريخ والجغرافيا والطب .. الخ في تطور الحياة الإنسانية بشكل عام.

إبراهيم: ولماذا لا تقول إنها معرفة روحية تساهم في تقدم الإنسان روحياً؟

جرجس: الحديث عن الروح والأمور الروحية يكون أحياناً فرصة للهرب من مواجهة المشكلة الرئيسية.

إبراهيم: أنا أختلف معك جذرياً. لأنك تريد أن تجعل الله في متناول الحس الشعور، وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الله كائنٌ ماديٌ؛ لأن الإحساس والشعور عند الإنسان هو وليد عمليات الجهاز العصبي المعقدة، وبالتالي يجب أن يكون موضوعاً مرئياً ومنظوراً، وها أنت تريد أن تجعل الله كائناً مادياً يقع تحت سيطرة الحواس البشرية.

جرجس: وأنا أختلف معك جذرياً في موضوع الحس والشعور، ذلك أنه وعلى الرغم من أن الإنسان له الجانب المادي المعروف أي الجسد، إلَّا أن الجسد

ليس مادياً في وظيفته؛ لأنه يعطي الإنسان الشعور بعظمة الله وقوته وهو عنصر أساسي في التدين عند كل البشر. فليست كل المشاعر مادية، بل فيها مشاعر روحية.

الحوار الثاني

أسباب التجسُّد

إبراهيم: كيف تحدد سبب التجسُّد، أو أسباب التجسُّد، إذا كان هناك أكثر من سبب؟

جرجس: أولاً: طبيعة الله نفسه. فهي مختلفة تماماً عن طبيعة كل المخلوقات، وأهم اختلاف هو أن الله خالق، وبالتالي فهو مصدر كل الكائنات وينبوع الحياة.

إبراهيم: ماذا تعني كلمة مصدر؟ وماذا تقصد بأن الله ينبوع الحياة؟

جرجس: أعني أنه لا يوجد محرك أو سبب أو علة لوجود الكائنات سوى الله. فالله خالق، وبالتالي هو الذي صمم الوجود وأبدعه. وفي الديانات القديمة اعتقد بعض الناس أن الله مصدر الخلائق، وأن كل الكائنات هي فيض منه أو أنه خَلَقَ الكائنات من ذاته. وإذا أردنا أن نعبِّر عن هذا بلغة الإنسان المعاصر نقول إن الله اعتبر ذاته المادة الأولية أو المادة الخام التي خلق منها الكائنات. غير أن هذا الرأي باطل ولا قيمة له ولا يؤمن به أيٌّ من الناس الآن. والرأي السائد هو الخلق من العدم. ونحن في الواقع لا نعرف ما هو العدم؛ لأننا نعرف الوجود. والعدم ليس هو نقيض الوجود. فأنت تعرف أن التعريفات السلبية ناقصة دائماً ولا قيمة لها في عالم الظواهر؛ لأنها تخلو من كل مدلول إيجابي. وأعتقد أن الخلق من العدم أساسي وضروري لتأكيد سيادة الله على الخليقة، فالخالق أعطى الوجود؛ ولأنه حيٌّ وَهَبَ الحياة. الخلق من العدم تعبيرٌ عميقٌ عن عظيم عطاء الله.

إبراهيم: إذا نحن نؤمن أن الله خَلَقَ من لا شيء، وليس مثل مدارس الفلسفة اليونانية التي نادت بأن المادة أزلية، وأن الله صانعٌ وليس خالقاً.

جرجس: هذا حسن ومقبول. لكن خلق العالم من العدم أو من لا شيء يؤكد أيضاً أن كل المخلوقات لا وجود لها بدون إرادة الله، وهذا يجعل كل المخلوقات تعتمد على الله بشكل مباشر. ولهذا قلت إنه هو الينبوع، أو المصدر الأوحد للموجودات والحياة. ويوجد في الديانات تصورين:

الأول: إن الله خلق العالم ثم ربطه بالقوانين الطبيعية وتركه يسير وفق القانون الذي يحكم الكون، بمعنى أن الكون متكامل البناء، وأن الحياة لها ما يربطها ببعضها. ولذلك، فالله لا يتدخل في الكون إطلاقاً.

والثاني: يعتقد بأنه بالرغم من وجود القوانين إلَّا أن الله هو الذي يشرف بشكل مستمر على رعاية الكون، وأنه يخلق الحياة باستمرار، وبدونه تنعدم الحياة، وذلك عطاء الله الذي لا يتوقف.

إبراهيم: وأي التصورين هو تعليم المسيحية؟

جرجس: الثاني. لأن كل نصوص الكتاب المقدس تؤكد استمرار الخلق لا سيما ذلك التصريح المشهور: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل».

إبراهيم: وما الذي يجعلنا نرفض التصور الأول؟

جرجس: لأن التصور الأول هو أقرب إلى الفكرة الأفلاطونية، وهو يكاد يقول إن الله بعدما خلق العالم لا يتدخل فيه مطلقاً؛ لأنه أخضع كل شيء لقانون واجب النفاذ، وبالتالي الكون يكتفي بما لديه ولا يحتاج إلى الله. هذا التصور ينمو في قلوب الذين لا يرغبون أو لا يؤمنون بوجود غاية وراء خلق العالم.

إبراهيم: لقد تحدثت من قبل عن غاية خلق العالم أو الكون. فماذا تعني بالضبط؟

جرجس: أعني أن معرفة الإنسان بالله هي أسمى غاية يمكن أن يتطلع إليها الإنسان لأنها هي قصد الله نفسه.

إبراهيم: وكيف يمكننا أن ندلل على ذلك؟

جرجس: كما قلت سابقاً: من معرفتنا بطبيعة الله. فالله يعلن محبته الفائقة عندما يخلق الإنسان، وعندما يودع فيه الرغبات والأفكار التي تتوق لمعرفته، والتي تجعل الإنسان في شوق دائم إلى الخالق. هذا العطش الطبيعي يؤكد أن الإنسان يدرك أن وراءه سرٌ لا يدرَك، وأن الله هو سره، والله لا يحتاج مطلقاً إلى الإنسان أو لغيره. ولقد وجدت في عبارة القداس: «لم تكن أنت المحتاج إلى عبوديتي، بل أنا المحتاج لربوبيتك» المفتاح لفهم علاقتي بالله. ذلك أن الله لا يحتاج مطلقاً للإنسان، ولذلك لا يستعبده ولا يضع عليه قيوداً. الله كلي الصلاح ولا ينقصه شيء، ولذلك لم يخلق الإنسان لأنه يحتاج لمن يخدمه. هذه نظرة تدل على تصور الله كإنسان يحتاج، أو كسيد متكبِّر لا يرتاح إلَّا إذا جلس وسط عبيده، ولذلك كل كلام عن عبودية الإنسان لله هو إقلال من صلاح الله.

إبراهيم: ولكنك تشعر بسيادة الله ولا تكلمه إلَّا كعبد؛ لأنه منتهى التهور أن تظن أنك .. مثل الله. أو ماذا؟

جرجس: يمكن للإنسان كعاصٍ أن يقول لله: «أنا عبدك». ولكننا إذا شئنا أن نكون حسني النية من ناحية الله والإنسان فعلينا ألَّا نتوقف عند علاقة العبودية لأنها لا تليق بالله ولا بالإنسان. فهي تربط الاثنين بعلاقة محددة لا فكاك منها. ويجعل صلاح الله ورحمته تصطدم بشكل مباشر بالخليقة، إذ تظل كل خيرات الله قاصرة على العبودية لا تتخطاها. وهذا يجعل الإنسان نفسه في وضع لا يمكنه من الاستفادة من خيرات الله؛ لأنه لا يملك أن يتخطى حدود العبودية، وهذا ما أعنيه بحُسن النية من ناحية الله والإنسان؛ لأننا لا نملك –لا فكرياً ولا فلسفياً– أن نجمِّد علاقة الله بالإنسان في وضع معين.

وأعتقد أن الذين يجمِّدون علاقة الله بالإنسان هم أصلاً الذي يؤمنون أن

الله خلق الكون والإنسان وتركه يحيا وفق القوانين الطبيعية. أي الذين لا يؤمنون بوجود علاقة بين الخالق والمخلوق.

إبراهيم: إذن، أنت تؤمن بأن الإنسان يمكنه أن يكون عبداً، ولكن يمكن أن يتخطى هذه المرحلة إلى ما هو أعلى من العبودية، فما هو أعلى من العبودية في رأيك؟

جرجس: إن تخطِّي الإنسان لمرحلة العبودية أمرٌ ضروري بالنسبة لكل من يؤمن بصلاح الله. ولقد وجدت أن المسيحية –دون غيرها– هي التي تعرض على الإنسان مشروع «البنوة»، أي أن يكون الإنسان ابناً لله.

إبراهيم: ألا ترى أن هذا كثيرٌ جداً؟

جرجس: كثيرٌ على مَن؟ إذا كان كثيرٌ على الله، فأنت لا تعرف شيئاً عن الله. لأنه يعطي ويعطي ولا يتوقف عن العطاء؛ لأن عطايا الله لا تجعله ينقص؛ بل تزداد. تأمل الكون قبل أن يُخلق. كان الله في الأزل وحده. كانت كل عطاياه في شبه كمون. ثم خلق الكون بكل ما فيه. وأصبحت الخليقة تأخذ منه، فهل نقصت عطاياه؟ بكل تأكيد لا. بل زادت؛ لأن عطاياه أعادت إليه الربح، أي الأصدقاء والأحباء من الملائكة والبشر، هؤلاء جميعاً دعاهم الله إليه، وبذلك صاروا نخبته المفضَّلة التي حوله، والتي تأخذ منه كل ما يحتاجون إليه في حياتهم، فعطية الله لا تنقص.

إبراهيم: ولكن ما علاقة عطايا الله بمشروع البنوة الذي ذكرته سابقاً؟

جرجس: إن مشروع بنوة الإنسان لله ليس من وحي خيال الإنسان، بل يعتمد على ما وُهِبَ للإنسان عند خلقه، ويعتمد أيضاً على طبيعة الله.

عطية البنوة بتجسد الابن

إبراهيم: هل تعني إن الإنسان وُهِبَ عند خلقه أن يكون ابناً لله؟

جرجس: نعم بكل تأكيد. فقد ذكرنا من قبل أنه خُلِقَ «كصورة الله»، وهذا يعني أن الخالق أعطاه الطبيعة القادرة على أن ترتقي إلى مستوى البنوة لا سيما عندما جاء هو واتحد بالطبيعة الإنسانية، وجعلها بذلك قادرة على أن تصل إلى ما فقدته بسبب الابتعاد عن الأصل، «أي الله». ولذلك جاء الأصل «أي الله» وتجسَّد لكي يرُدَّ الصورةَ إلى أصلها.

إبراهيم: حسناً. إذا كانت الطبيعة الإنسانية قد ابتعدت عن الله، فهل كان التجسُّد هو وحده العلاج؟ إذا كان الله قد خلق الإنسان من العدم بكلمة، فهو يستطيع أن يعيد له أي شيء فقده بكلمة منه.

جرجس: طبعاً لا يمكن أن ننكر قوة الله. الموضوع هو أن العلاقة بين الطرفين لا يمكن إصلاحها من طرف واحد، فعلى الطرف المخطئ أن يعرف خطأه، وأن يستعد لتغيير موقفه.

إبراهيم: إذن، يمكن للإنسان أن يطلب من الله أن يغيِّر كل شيء بقوته، ولن يتأخر الله.

جرجس: أعتقد أن انهيار العلاقة بين الله والإنسان ليس موضوعاً سهلاً يمكن أن يُحَل بكلمة الله الخالقة أو بقوته، ليس لأن الله عاجزٌ عن الحل، وإنما الحل هو تأسيس العلاقة من جديد، وهو نوعٌ من الخلق. ولكن كان الخلق الأول بدون رغبة إرادة الإنسان، أمَّا هذا الخلق، فهو يتم بوعي وإرادة الإنسان وحرية اختياره.

إبراهيم: أنت لم تُجِب بعد على سؤالي؟

جرجس: أُصبر قليلاً. إن الله عندما يعطي شيئاً جديداً بعد خلق الإنسان، فعليه أن يفعل ذلك بشكل يغري الإنسان بالقبول، ولذلك لم يلجأ إلى قدرته بل إلى محبته.

إبراهيم: يغري الإنسان؟! أنت تصوِّر الله في موقف العجز. هو يستطيع أن يخلق مئات من البشر وأن يلاشي الأرض ومَن عليها يا صديقي. أنت تتحدث عن الله وليس عن المخلوق.

قوة المحبة

جرجس: أنا أعرف أنني أتحدث عن الله، ولذلك أُكرر الكلام بأن قوة الله ليست في سرعة البطش أو السحق. هذا سهلٌ ميسور. فليس القضاء على الإنسان هو المشكلة، بل المشكلة هي إعادة الإنسان إلى الله. من جهة القدرة، الله ليس طاغية مثل هتلر. إنه قادرٌ على أن يلاشي الكون كله، لكنه بهذا يظهر بكل وضوح أنه فشل في علاج المشكلة، وأنه مثلنا ييأس، ولذلك يلجأ إلى القوة. القوةُ يأسٌ. وأمَّا المحبة، فهي صبرٌ وسعيٌ دائمٌ لحل المشكلة. وعندما يعالج الله موضوع ابتعاد الإنسان عنه، فعليه أن يعالجه بطريقة لا تجعل الإنسان ينفر من الله ويبتعد عنه أكثر.

إبراهيم: وماذا يضر الله سواء نفر الإنسان أم رغب؟

جرجس: الموضوع ليس بحث الضرر من عدمه. الموضوع هو أن الله خالق ويعلم ماذا خلق ويعلم إلى أي جهة يمكن أن يميل الإنسان. إنني أفهم موضوع التجسُّد على هذا النحو ... وقد درسته في كتاب جيد اسمه «تجسُّد الكلمة» لأحد آباء الكنيسة، وهو القديس أثناسيوس.

يقول أثناسيوس إن جوهر المشكلة هو حرية الاختيار عند الإنسان. فهو يمكنه أن يميل إلى الشر، ويمكن أن يميل إلى الخير. ولذلك كان على الله أن يدعِّم حرية الاختيار عند الإنسان، فأعطاه الفردوس وأعطاه الوصية، ثم وهبه فوق كل هذا أن يتأمل الله وأن يتعرَّف عليه.

ولما فقد الإنسان هذه العلاقة، كان على الله أن يعيد الإنسان إليه من جديد. القهر لا يتناسب مع طبيعة الله وإعادة الإنسان إلى الله يجب أن

تتم بحرية الإنسان لا بالكُره أو الإجبار، لذلك دبَّر الله التجسُّد.

إبراهيم: إذاً يمكن للإنسان أن يرفض التجسُّد، وبالتالي يفشل هذا الحل أيضاً.

جرجس: هذا الحل لن يفشل، فهو الحل الوحيد. ومما لا شك فيه أن هناك مَن يرفض التجسُّد، ولكن مما لا شك فيه أن هناك مَن يقبل التجسُّد ويؤمن به. وقد اختار الله التجسُّد؛ لأن ابتعاد الإنسان عن الله عرَّضَه لتغيير أساسي أصاب الطبيعة الإنسانية .. وهو الموت والفساد، ولذلك لم يكن ممكناً أن يتم تغيير الطبيعة الإنسانية إلَّا بإعادة تطعيمها بطبيعة إنسانية جديدة تستطيع أن تقهر الفساد والموت.

إبراهيم: ماذا تعني بالتطعيم؟

جرجس: أعني أن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح جعل الناسوت يأخذ قوةً وحياةً من جديد لا يمكن للفساد والموت أن يقهرها، ولذلك كل مَن يتَّحد بالإله المتجسِّد يرى فيه هذه الطبيعة الجديدة غير القابلة للفساد.

إبراهيم: أنا لا افهم شيئاً مما ذكرت.

جرجس: ما أعنيه هو أن الإنسان خضع للموت والفساد، ولم تكن هناك وسيلة يمكن أن يزول بها الموت إلَّا باقتراب ينبوع الحياة، وهو الله من الإنسان.

إبراهيم: وكيف حدث هذا الاقتراب؟

جرجس: لا يوجد عنصر مشترك بين الله والإنسان. فالله هو الله، والإنسان هو الإنسان. ولذلك اتخذ الله كل مكونات الطبيعة الإنسانية لتكون وسيلة أو جسراً يمكِّنه –وقد اشترك فيما يخص الإنسان– من أن ينقل حياةً جديدةً فائقةً للإنسان. كان التجسُّد هنا واسطة أو وسيطاً بين الله والإنسان، وكلما اقترب الإنسان من الوسيط، كلما استطاع أن ينال منه ما يؤهله للحياة الجديدة.

إبراهيم: إذا صح هذا الكلام. فما هي طريقة الاقتراب من الإله المتجسِّد؟

جرجس: توجد عدة طرق.

إبراهيم: ما هي هذه الطرق؟

المسيح آدم الثاني

جرجس: إن مجيء الله إلينا بالجسد جعله رأساً جديداً للإنسانية مثل آدم الذي كان رأساً للإنسانية، والذي منه تنحدر كل البشرية. هكذا المسيح له المجد، دُعي آدم الثاني أو آدم الجديد ومنه يُولد الجنس البشري الجديد الذي يعرف الله معرفةً حقة مختلفة عن المعرفة القديمة. ولذلك نحن نولد من المسيح ومثل المسيح.

إبراهيم: ما معنى من المسيح ومثل للمسيح؟

جرجس: من المسيح بمعنى أن طبيعتنا الجديدة تأتي منه هو مباشرةً. ومثل المسيح أي بميلاد معجزي لا يتم وفق القوانين الطبيعية، بل بعمل فائق معجزي مثل ميلاد المسيح من عذراء بالروح القدس. نحن هكذا، وعلى نفس المثال نولد من الماء والروح القدس ميلاداً جديداً فائقاً، ويتم فينا القول: «أمَّا الذين قبلوه، فأعطاهم القدرة على أن يكونوا أبناء الله الذين وُلدوا ليس من دم ولا جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله ولدوا».

إبراهيم: ولكن كيف يتم هذا الميلاد؟ في حالة السيد المسيح الأمر واضح. لقد تكوَّن مثل جنين في أحشاء العذراء بقوة خارقة. ولكن كيف يتم الأمر بالنسبة لنا؟

جرجس: كما ذكرت: على نفس المثال، أي أن القوة الخالقة التي عملت في ميلاد المسيح، وهي قوة الروح القدس تجعل من الممكن أن يُخلق الإنسان من جديد بالمعمودية. فالروح يعمل في الماء وفي الإنسان الذي يعتمد، فيولد من المياه إنساناً جديداً.

إبراهيم: لقد ذكرت أن القوة الفعالة هي قوة الروح القدس، فأين السيد المسيح في هذه الحالة؟

الطبيعة الجديدة

جرجس: المسيحُ حاضرٌ بلا شك في المعمودية.

فهو حاضر أولاً: كوسيط بمعنى أن الإنسان الذي غطس في الماء لا يملك في ذاته أي فضيلة أو قداسة تؤهِّله لكي يعمل فيه روح الله الكلي القداسة، ولذلك ولأن المسيح هو آدم الثاني الذي منه تنحدر القداسة ينقل الروح القدس هذه القداسة من المسيح إلى الإنسان.

ثانياً: المسيحُ حاضرٌ؛ لأنه ابن الله، بمعنى أنه هو مصدر بنوة الإنسان لله، ولذلك ينقل الروح القدس من بنوة الابن ويعطينا. وهذا يؤكد قول المسيح نفسه: «الروح يأخذ مما لي ويعطيكم».

وثالثاً: هو حاضرٌ كفادي ومخلص مات وقام. وهذا هو سر المعمودية حقاً. لأن الروح القدس ينقل إلينا موت المسيح وقيامته. فنحن في المعمودية نموت مع المسيح عندما تُصلَب طبيعتنا القديمة التي تحب أن تحيا لنفسها ولشهواتها الخاصة ونأخذ طبيعة المسيح التي تحيا لله.

إبراهيم: تحيا لله؟ هل تعني أن المسيح يحيا لله؟ وإذا كنت تعني هذه العبارة، فما معنى أن المسيح هو الإله المتجسِّد، وكيف يكون ابن الله والله في نفس الوقت؟

جرجس: الحياة لله هي أن لا يحيا الإنسان لنفسه. وقد جاء المسيح له المجد لكي يقدِّم لنا هذا النموذج الكامل الذي نتمثل به في حياتنا. وقدَّم هذا النموذج بالموت على الصليب، فصار بذلك مثالاً كاملاً للطاعة لله. وعلينا أن نميِّز بين عمل المسيح كابن الله المتجسد ووجوده قبل التجسُّد، ذلك أنك تعلم أن الإنسان إذا تزوج لم يعد فرداً مستقلاً، بل يقبل أن تشاركه زوجته حياته

بكل ما فيها. وعندما يصبح أباً تتغيَّر حياته بشكل واضح، إذ يدخل طرفٌ ثالث على العلاقة، وبعد أن كان زوجاً صار أباً، فهو ابن وأب في ذات الوقت. هو ابنٌ؛ لأن له والداً. وهو أبٌ؛ لأن له ابناً. وهكذا يمكن من جهة علاقته بأبيه أن يتكلم مع أبيه كابن، ومن جهة علاقته بابنه أن يتكلم مع ابنه كأب. فهل ترى في هذا تناقض؟

إبراهيم: لست أرى تناقضاً، بل يمكن أن أُضيف وأقول إن الشخص الواحد يمكنه أن يكون ابناً أولاً ثم أباً وبعد ذلك عماً وخالاً، وربما جداً أيضاً. ولكن الذي لا أفهمه هو كيف ينطبق هذا على السيد المسيح؟

جرجس: حسنٌ جداً .. المسيح في علاقته بالآب هو ابن الآب السماوي ويتحدث إليه كابن. وفي علاقته بنا هو ربٌّ وإله. فنحن بالنسبة له مخلوقاته، ولذلك إذا تحدَّث معنا يتحدث بسلطان الربوبية وقدرتها. ولكنه إذا تحدث باسم الإنسانية للآب، فهو يتحدث كإنسان وباسم كل البشر. وإذا كنت قد أدركت أن الإنسان يمكنه أن يكون ابناً وأباً في وقت واحد وتتغيَّر كلماته حسب المناسبة التي يتحدث فيها، فنفس القاعدة تنطبق على السيد المسيح. فهو أحياناً يتكلم كإله، وأحياناً يتكلم كوسيط بين الله والبشر وباسم البشر، ولذلك تختلف كلماته باختلاف المناسبة.

إبراهيم: ألا ترى أن هذا نوعٌ من التعقيد؟

جرجس: ألا ترى أنت أن كل علاقة مهما كان نوعها لا يمكن أن تكون سوى علاقة معقدة ما دامت جادة وأمينة ومخلصة. فتذكر علاقتك بزوجتك قبل الزواج، تجد أنها كانت سهلة وخفيفة، وربما رومانسية وحالمة. ولكن بعد الزواج، عندما دخلت العلاقة مرحلة أعمق وصارت حياتكما مرتبطة ارتباطاً قوياً، ظهرت المشاكل وتعقَّدت بعض الأمور. أليس كذلك؟

العلاقة السطحية مع الله علاقة سهلة

إبراهيم: نعم .. هذا صحيح .. ولكن ما علاقة هذا بالدين؟

جرجس: يا أخي نحن نأخذ الدين بشكل سطحي. ونظن أن علاقتنا بالله هي أسهل بكثير من علاقتنا بصديق أو قريب. وتأمل كيف يوجد الله في كل مكان، وكل زمان، فهو يرافقنا في كل لحظة، بل في كل خطوة تخطوها، فهو معنا دائماً بينما مع أصدقائنا ومعارفنا عندما يختفون عن عيوننا لا نعود نراهم بعد ذلك، ويصبحون مجرد ذكرى، فكيف تكون علاقتنا بالله الحاضر دائماً في كل مكان وزمان أسهل وأخف من علاقتنا بالناس.

إبراهيم: هذا حقيقي، ولكن الله لا يخلق المشاكل مثل الأصدقاء والمعارف، وبالتالي فالعلاقة معه أسهل.

جرجس: صحيح إن الله لا يخلق المشاكل للإنسان، ولكنك تنسى أن الله له طبيعة مختلفة تماماً عن الإنسان، ولذلك فهو يتطلب من الإنسان وعياً أكثر وعلاقة أعمق. عندما يقف الإنسان ويتحدث مع الخالق في الصلاة، فهو لا يتحدث معه مثل رئيس أو بشر؛ لأنه لا يستطيع أن يخدعه.

إبراهيم: ولكنك ذكرت أن الله تجسَّد، ألا تصبح علاقتنا به أسهل، وألَا تصبح طبيعته مثل طبيعتنا؟

جرجس: أرجو أن تتذكر دائماً أن التجسُّد لا يعني أن الله تحول وفقد أُلوهيته، ومادمت تتحدث عن علاقتنا بالله المتجسِّد، فإنني أجد أنه من الضروري أن أشير إلى حقيقة هامة، وهي أننا عندما نقترب من الله، وفي الصلاة بالذات، نطلب كل ما نريد في اسم المسيح، بمعنى أن كل طلباتنا نقدمها لله بكل ثقة في اسم ذاك الذي اشترك في طبيعتنا، وصار مثلنا ما خلا الخطية وحدها.

الصلاة باسم المسيح

إبراهيم: لا أفهم .. تقدِّم صلاةً باسم المسيح؟ ولمن للآب؟ فما هي علاقتنا بالآب بعد التجسُّد؟ ولمن نصلي؟ وكيف كان الناس يصلُّون عندما تجسَّد الابن؟ لذلك الذين يشاهدونه أمامهم، أم لمن هو في السماء؟ هذا محيِّرٌ حقاً؟

جرجس: إذا بدأت بالسؤال من نهايته استطعت أن أجيب على بداية السؤال. عندما أراك يا إبراهيم أمامي، فإنني أفترض أن مساحة رأسك لا تزيد عن ٤٥سم، أو لنقل ١٠٠سم، ولكن هذه المساحة الصغيرة تحمل في داخلها معلومات وذكريات تعود إلى سن الرابعة على الأقل. ولو دوَّنت كل المعلومات التي في رأسك لملأت عدة مجلدات تملأ مساحة ثلاث أو أربعة أضعاف رأسك، ولذلك من الخطأ أن تقول إنك أنت لا تزيد عن ١٣٠سم طولاً و٤٠سم عرضاً. إن وجودك في هذا الحيِّز الضيق لا يفسر شخصيتك مطلقاً ولست أريد أن أخوض في تأثيرك على زملاؤك وأبنائك وكل المتصلين بك، فهو يفوق بكثير طولك وعرضك. هكذا التجسُّد، لا يمكن أن ينحصر وجوده في ذلك الحيز الذي تسميه الجسد، ولذلك عليك أن تطرح جانباً -وبكل سرعة، وبدون ترددٍ- كل التصورات عن الله المحصور في الجسد، فهذا أمرٌ لا يتفق مع طبيعة الله.

إن الجسد بالنسبة للإنسان هو مكان محصور تتجلى فيه شخصية الإنسان وثقافته وعلمه، وشخصية الإنسان تتعدى ذلك المكان المحصور الذي نسميه «الجسد». كذلك التجسُّد كان المكان الذي تجلَّت فيه محبة الله وعنايته بنا، ولكنه -كإله- غير محصور بالمرة في الجسد. وعلى هذا الأساس عندما نصلي للإله المتجسد لا يجوز لنا أن نتصور أن السماء صارت فارغة أو خالية من الله، ولعلني بذلك أجبت على سؤالك.

إبراهيم: ليس على كل سؤال. لقد أشرت في الكلام عن عدم انحصار الله في الجسد عندما تجسَّد، ولكن السؤال الخاص بالصلاة يحيِّرني حقاً. إنني أتصور أن

المسيح هو آدم الثاني، وأننا فعلاً نقدِّم صلواتنا للآب باسم المسيح. فكيف تشرح أنت هذه العلاقة؟ وما هي علاقة الآب بالابن، وبالذات في الصلاة التي نقدِّمها نحن البشر؟

جرجس: في مجال العلاقات علينا أن نفهم شيئاً هاماً، وهو أن ما يجوز في إطار علاقة معينة لا يجوز في إطار علاقة أخرى. وخذ مثالاً لذلك: تستطيع أن توبِّخ ابنك عندما يخطئ بكل كلمة تراها مناسبة. ولكن إذا فعل أبوك نفس الخطأ ترى نفسك وقد أحجمت عن الكلام القاسي العنيف وأصبحت تختار كلامك. وإذا ارتكب ابنك نفس الخطأ ضد أخيه، فهو لا يملك أن يتحدث بنفس الشكل أو بنفس القوة، ذلك أننا في مجال العلاقات علينا أن ندرك أن المحظور في علاقة معينة يمكن أن يكون مباحاً وصحيحاً في علاقة أخرى. وعلى نفس القياس مع الفارق الضخم، الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم في جوهر واحد، لهم طبيعة إلهية واحدة وإرادة واحدة ومشيئة واحدة. ولذلك ما يُنسب للآب يُنسب للابن وما يُنسب للابن والآب يُنسب للروح القدس. وهكذا لا فرق بينهم في الصفات الإلهية. ولهذا السبب عندما تجسَّد الابن وصار مثلنا نقول إنه الله المتجسد الذي هو كائن مع الآب والروح القدس في الجوهر أو الطبيعة الإلهية الواحدة التي لا تنقسم. وقبل التجسُّد وبعد التجسُّد إذا صلى أحدٌ ما للآب، فهو يصلي له وللابن والروح القدس حتى إذا وجَّه الحديث للآب فقط.

إبراهيم: حسناً .. إذاً ما معنى الصلاة باسم الابن؟

جرجس: المعنى ظاهر وواضح. وهو أن علاقتنا بالله بعد التجسُّد صارت محصورة وقائمة على ما قدَّمه لنا الابن من امتيازات لا نملك غيرها أو مثلها بدونه. ولذلك إذا صلينا، فإننا نصلي للآب قائلين: نشكرك على ما وهبتنا إياه ولأجل ما أعطيتنا إياه لا سيما شرف الانتساب إليك كأبناء. هذا الشرف الذي لا وجود له خارج الابن. وهكذا كل ما نطلبه في الصلاة – كأبناء

الله في اسم الابن الوحيد الذي أعطانا قدرةً على أن نكون أبناءَ الله – كل ما نطلبه في الصلاة نناله لأن الابن أعطانا أن نعرف معنى البنوة وما هي احتياجات البنوة، ولذلك لا نستطيع أن نطلب إلَّا ما يؤهِّلنا ويساعدنا على بنوتنا لله. وهذا ما نعبِّر عنه باسم يسوع المسيح. وما صرَّح به المسيح نفسه، كل ما تطلبونه في الصلاة باسمي تنالونه.

إبراهيم: إذاً يمكن أن نستنتج من كلامك أن الصلاة والديانة نفسها هي علاقات. لأنك تركز كلامك على موضوع العلاقة. فهل أنا على صواب؟

جرجس: أعتقد أن تحديد الديانة بكلمة علاقات هو تحديد صحيح لا خطر منه مطلقاً. وعلى الرغم من أن كلمة علاقة، وعلاقات لم تأتِ في العهد الجديد إلَّا أنه من الواضح أن المسيح يؤكد أن علاقته بنا صارت إلى أفضل عندما يقول: «لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم إرادة سيده». وهذه الحقيقة هامة وأساسية؛ لأن العطايا ليست شيئاً يُكتَنز، بل طاقة تُستَعمَل لكي تنشأ علاقة أو علاقات. وحتى الله نفسه بكل ما لديه من قوة وطاقات لم يخزِّن هذه الطاقات، وإنما أعطاها ووهبها لتكون أساس علاقات بينه وبين المخلوقات. لكن كلمة علاقة قد يكون لها المدلول السكوني «الاستاتيكي» غير الفعال. ولذلك علينا أن نضع كلمة «متطورة» بجوار كلمة علاقة. لأن علاقة الله بالإنسانية هي علاقة متطورة.

تطور علاقة الإنسان بالله بسبب التجسُّد

إبراهيم: لقد أجبت بشكل واضح جداً، ولذلك يهمني الآن أن أسأل: ما هو التطور الأساسي الذي أحدثه التجسُّد في علاقة الله بنا؟

جرجس: يمكننا أن نلخِّص هذا التطور على النحو التالي:

أولاً: قبل التجسُّد لم تكن علاقة الله بالإنسان واضحة تماماً. كان الإنسان كائناً سيحيا أو سيموت أو ينحل جسده بفعل الضعف الطبيعي، كان

مصير الإنسان قابلاً للتخمين. أمَّا بعد التجسُّد فقط، ظهر بكل وضوح أن الإنسان سوف يحيا إلى الأبد؛ لأن القيامة ستعقب الموت، ولأن مصير الإنسان بات واضحاً. وأصبحت العلاقة بين الله والإنسان علاقة معروفة قائمة على مصير أبدي واضح.

ثانياً: لم يعد الإنسان مخلوقاً بعيداً عن الله، فالله المتجسِّد جعل الجسد القاسم المشترك بينه وبين الإنسانية. وعندما اتحد اللاهوت بالناسوت، صار هذا الاتحاد بداية إسباغ خيرات اللاهوت على الناسوت، أولاً في المسيح كبداية، ثم بعد ذلك لباقي البشر، ويصبح كل إنسان -مهما كان- لمجرد كونه إنسان مدعواً لأن يشترك في خيرات الله التي تتركز على اتحاد أُلوهيته بالناسوت في يسوع المسيح. فعلى أساس هذا الاتحاد وما يترتب عليه من نتائج، نال الإنسان الهبات التي نالها ناسوت المسيح.

إبراهيم: توقف قليلاً .. حاسب .. لقد أفرطت في الكلام .. هل أنت تعني أن الإنسانية سوف تصبح مثل المسيح قادرة على إقامة الموتى وشفاء مولود أعمى .. الخ. حاسب هذا كثير.

جرجس: لعلك على حق في اعتراضك. فإن هذا الموضوع غير مفهوم بالمرة عندنا، وقد ثار الجدل حوله وكثُر القيل والقال .. وقد استخدم بعض الناس كلمة تأليه الإنسان، واعتبرها البعض إهانة لمقام الإله المتجسِّد لأن البشرية رُفعت إلى ذات مرتبة المسيح.

إبراهيم: إذن، أنت تعرف الخليقة، ومع ذلك تقول إن الإنسانية سوف تنال كل نتائج اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح. فهل تعني أن الإنسان المسيحي يصبح جسده واهباً للحياة مثل جسد الله الكلمة؟ هذا تعليم خطير جداً.

جرجس: طبعاً من الخطورة أن نرفع الإنسان إلى مقام الرب الإله المتجسِّد، أو نخفض مكان الرب ونجعله مساوياً لنا. ولكنني درست هذا الموضوع بعناية فائقة فوجدت أن الآباء يستخدمون كلمة يونانية يمكن ترجمتها إلى «تأليه»،

وهذا يعني أن التجسُّد فتح باب مشاركتنا في الطبيعة الإلهية حسب تعبير القديس بطرس (٢بطرس ١: ٣).

إبراهيم: ماذا تعني بذلك، وبكل دقة؟

اتحاد اللاهوت بالناسوت

جرجس: ما أعنيه أنه حدث اتحادٌ بين اللاهوت والناسوت في المسيح بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وهذا التحديد في غاية الأهمية والدقة، وهو يؤكد أن اللاهوت ظل لاهوتاً والناسوت ظل ناسوتاً. ولكن الاتحاد حقيقي لدرجة أن الناسوت صار واحداً مع اللاهوت في المسيح الواحد حسب نص الاعتراف الأخير في القداس. ومن هنا ندرك بكل وضوح أن الاتحاد الحقيقي جعل المسيح الواحد ليس إلهاً ولا إنساناً، بل إلهاً متجسداً. ولما اتحد اللاهوت بالناسوت صار جسد الابن الكلمة معطياً الحياة، وكان كل من يلمسه ينال الشفاء، وهكذا.

ولكن الابن الكلمة هو رأس الكنيسة، ومن هذا الرأس تنمو كل أعضاء الجسد حسب تعبير بولس الرسول، ولذلك عندما نتَّحد بالمسيح في المعمودية وفي سر الإفخارستيا، فنحن لا نتَّحد بالناسوت وحده ولا نتَّحد باللاهوت وحده، بل بالمسيح الواحد الإله المتأنِّس، ويمكنك أن ترى هذا بوضوح في الإصحاحين الرئيسيين اللذين يتحدثان عن المعمودية والإفخارستيا، وأعني رومية إصحاح ٦ ويوحنا إصحاح ٦. نحن نأخذ الناسوت ولكننا نأخذ اللاهوت المتَّحد به، وإلَّا ما قيمة الناسوت؟

إبراهيم: الناسوت وحده لا ينفعنا بشيء، ولذلك قال الرب: الجسد لا يفيد شيئاً، وإنما الروح هو الذي يحيي. وأعتقد أن الروح هنا يقصد به اللاهوت.

جرجس: حسناً قلت. لأن هذا الشرح الدقيق ذكره القديس أثناسيوس الرسولي. ولكن لأن الناسوت ظل ناسوتاً في المسيح الواحد حتى بعد القيامة. هكذا

نحن نشترك في الطبيعة الإلهية بدون أن نصبح آلهة بالطبيعة، أي دون أن نفقد الطبيعة الإنسانية المخلوقة. وقد ذكر القديس كيرلس السكندري أن دوام التجسُّد يعني دوام شركتنا مع الله.

التجسُّد علاقة أبدية

إبراهيم: ماذا تعني بدوام التجسُّد؟

جرجس: أعني أن الناسوت الذي لبسه رب المجد سوف يظل به إلى الأبد. وعندما تقول الكنيسة إن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين، فهي تعني أن هذا الاتحاد باقٍ إلى الأبد.

وكما قلت لك من قبل إن الجزء المشترك بيننا وبين الله الكلمة هو الناسوت. ولذلك سوف يظل الابن الكلمة رأس الكنيسة حتى بعد يوم الدينونة ودخولنا في شركة كاملة مع الثالوث. لأننا بعد الدينونة سوف نلبس أجسادنا الممجدة التي هي مثل جسد ربنا يسوع وندخل في شركة أعمق وصفها الرسول بقوله: ويكون الله الكل في الكل، أي يصبح الثالوث القدوس كل شيء بالنسبة لنا نحن (كل) الذين سنخلص. ومتى تم ذلك صرنا فعلاً وحقاً مثل المسيح حسب قول يوحنا: ومتى ظهر ذاك سنكون مثله.

مثل المسيح

إبراهيم: ماذا تعني سنكون مثله؟ ... ولماذا لم تذكر شيئاً عن المعجزات؟

جرجس: سنكون في ذات المجد والبهاء الذي ناله ناسوت المسيح بسبب اتحاده باللاهوت. ولعل هذه الصورة البهية ستكون على نحو ما مثل صورة الرب في التجلي. أمَّا عن المعجزات، فأنت تعلم أنه لا يوجد موت ولا مرض في حياة الدهر الآتي، وبذلك لن يكون فينا مَن يحتاج إلى لمسة شفاء.. الخ. فكل ضعفات الجسد تزول حسب قول الرسول: «يُزرع في هوان ويُقام في مجد».

إبراهيم: وماذا عن الوضع بالنسبة لنا ونحن على الأرض، أي قبل القيامة؟

جرجس: أعتقد أن السيد المسيح قال: «الأعمال التي عملتها تعملوها وأعظم منها». ولكنك تدرك أيضاً أن الذين يتَّحدون بالمسيح لا يمكنهم إبراء مولود أعمى إلَّا بإذن المسيح وإرادته. ولكن في وسط الزحام، ورغم أن العديد من الناس كانوا يلمسونه إلَّا أن واحدة فقط نالت الشفاء، وهي المرأة نازفة الدم. فالمعجزات لا تتم بشكل آلي، وليس كل مَن لمس الرب نال الشفاء. ويكفي أن نذكر يهوذا الذي لم يلمسه فقط، بل قبَّله قُبلة الغش. أمَّا بالنسبة لمن يتَّحد بالمسيح فهو لا يقدر أن يعمل شيئاً من ذاته وباستقلال عن المسيح. لأن الاتحاد لا يؤدي إلى استقلال إرادة المؤمن، بل على العكس يؤدي إلى التنازل عن هذه الإرادة حسب قول المسيح الصريح: «إذا أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني». وكما قال هو نفسه: «الأعمال التي أعملها أنا إنما يعملها الآب الحال فيَّ»، فأكَّد بذلك على وحدة إرادته بإرادة الآب.

وعلى هذا المنوال نسلك نحن الذين اتحدنا بالمسيح إن شاء هو أن يعمل فينا لنقيم موتى، فهو وحده الذي يملك هذا الحق. وفي الحقيقة أنا لست أفهم ما هي مشكلة الذين يعارضون شركتنا في الطبيعة الإلهية.

الشركة في الطبيعة الإلهية

إبراهيم: إنها ليست مشكلة. ألا ترى أن الكلام عن شركة الطبيعة الإلهية يهدد عقيدة لاهوت المسيح.

جرجس: العكس هو الصحيح. إن شركة الطبيعة الإلهية يؤكد لاهوت المسيح. وكان هذا الدليل، أي شركة الطبيعة الإلهية هو أحد الأدلة القاطعة التي استخدمها الآباء، لا سيما أثناسيوس في محاربة البدعة الأريوسية؟

إبراهيم: كيف؟

جرجس: أنت تعلم أنه يوجد فرق بين الفلسفة اليونانية والكتاب المقدس. الفلسفة اليونانية تعلِّم بأن الإنسان خالدٌ بطبيعته. الكتاب المقدس يعلم أن الخلود هو عطية أو هبة من الله. ويكفينا في هذا المجال قول بولس الرسول: «أجرة الخطية هي موت أمَّا هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا». ويقول في موضع آخر عن الله: «الذي له وحده عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه». فإذا كان الله وحده هو الذي لا يموت كما نقول نحن في اللحن المشهور: «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحي الذي لا يموت»، فماذا يكون الإنسان؟ إنه مائتٌ وفانٍ كمخلوق حسبما ذكر القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة، وبالتالي فالخلود أو عدم الموت هو هبة الله التي ينالها الإنسان بشركته مع الله. وكما سقط آدم وفقد الحياة الأبدية، هكذا كل من ينفصل عن الله مثل آدم، يفقد الحياة الأبدية. وكذلك إذا بقينا في الشركة مع الله ننال الحياة الأبدية لكي نبقى معه في هذه الشركة. أمَّا إذا فقدنا الشركة، فإننا لا ننال الحياة الأبدية، بل نموت موتاً أبدياً في الجحيم.

إبراهيم: ماذا تعني بذلك؟ هل تقصد أن الخطاة يتلاشون؟

جرجس: لا يوجد نص صريح يعلِّم بذلك في الكتاب المقدس. ويؤكد الآباء أن قيامة الأشرار للدينونة تعني بقاؤهم في الموت الثاني الأبدي. وهو موضوع لا يمكن أن نتحدث عنه؛ لأننا لا نعرفه بالمرة. ولكن النقطة الحاسمة هي أن شركتنا في الطبيعة الإلهية تعني أننا سننال حياة عدم الموت وهي إحدى صفات الله.

لا خلود ولا قيامة بدون الشركة في الذي لا يموت

إبراهيم: ولكن بعض الديانات تعلِّم بأن الإنسان سينال عدم الموت وسيخلُد في الحياة الآخرة دون أن يكون لديهم أي اعتقاد بأن الإنسان يشترك في الطبيعة الإلهية.

جرجس: أنا أعرف ذلك، وهذه النقطة محيرة جداً، إذ كيف سينال الإنسان المخلوق من العدم هبة عدم الموت دون أن يشترك في الطبيعة الإلهية؟ فهذا ما لا أجده مقبولاً أو معقولاً بالمرة. الإنسان مخلوق لا يمكن أن ينال هبة عدم الموت إلَّا من اشتراكه في الحياة الإلهية بشكلٍ مباشر، وهذه أحدى الإمكانيات التي أعطاها الله لنا بتجسده.

إبراهيم: لماذا تجد أن عطية عدم الموت متناقضة مع الاعتقاد بخلق الإنسان؟

جرجس: بسبب واضح جداً، وهو أن الإنسان يميل قلبه إلى الشر، والشر هو نقص في معرفة الإنسان بالله. فالشر هو انحطاط وتغيُّر يصيب الطبيعة الإنسانية. فإذا كان الإنسان يتدنى إلى هذه الدرجة، فمن الواضح أنه خاضعٌ للضعف، ولذلك لا يمكن أن تكون عطية عدم الموت قد أُعطيت للإنسان كجزء طبيعي من كيانه أو بُنيته.

إبراهيم: ولكن ألا ترى أنه من الممكن أن ينال الإنسان عطية عدم الموت بعد القيامة من الأموات؟

جرجس: إذن، فقد أجبت على سؤالك بنفسك وقد ساعدتني في الإجابة .. لأن الإنسان سيموت، وسوف تنفصل نفسه عن جسده، وسوف يتحلل الجسد إلى تراب لكي يقوم لحياة عدم الموت. وهذا يؤكد أن الإنسان لم ينل هذه العطية عندما خُلِقَ، وإنما كان موعوداً بها إذا عاش في الشركة مع الله، ولكن لأنه لم يَعِش حياة الشركة مع الله، سقط وطُرِدَ من الفردوس ... ولكنه الآن يعود إلى هذه الشركة في المسيح يسوع ربنا، وهذا يعني أن عدم الموت يُعطى له. وأرجوك أن لا تزعجني بالسؤال عن مصير الأشرار؛ لأننا لا نملك أن نجيب على سؤالٍ يخصُّ الله الديان العادل، ولا يجعلني أُخاطر وأجاوبك بالنيابة عن الخالق، فالأشرار سوف يعاقبون في الجحيم.

إبراهيم: أنا أطلب منك إيضاحاً .. ولذلك هل تنكر أن الأشرار سيقومون؟ وإذا كانوا سيقومون فعلاً، فمن الواضح أن القيامة هي عدم الموت.

قيامة الأبرار والأشرار

جرجس: يؤكد الآباء بكل وضوح أن قيامة الأبرار ليست مثل قيامة الأشرار. ويقول السيد نفسه: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم». أمَّا عن الأشرار فقد قال إنهم يُطرحون في الظلمة الخارجية، أي حياة عدم الشركة مع الله. لم يذكر الرب نفسه ماذا سيكون بعد ذلك. ولكن الرسول يؤكد لنا بكل وضوح أن الذين يؤمنون بالمسيح سوف يقومون على مثال قيامة المسيح «الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده»، وهذا التغيير لم يُستخدَم للأشرار مطلقاً. وهنا يتوقف الفكر البشري لأنه يعجز عن عبور المسافة التي تفصل بيننا وبين ما بعد يوم الدينونة. وهذا الفكر ممدوحٌ من الله نفسه، وقد شجعنا عليه الله نفسه والآباء القديسين.

إبراهيم: حسناً .. لِنعُد إلى موضوع شركة الطبيعة الإلهية. لقد ذكرت أننا سنقوم مثل المسيح، فهل تعني أننا سنكون تماماً مثله؟

مثل المسيح في إنسانيته

جرجس: طبعاً لا. إذا كنت تقصد بعبارة تماماً مثله المطابقة والمماثلة الكاملة، فهذا خطأٌ ظاهر لا يمكن لإنسان أن يدَّعيه. المسيح هو الأقنوم الثاني والابن الوحيد الكلمة الله الذي هو مصدر الحياة، أمَّا نحن فكل ما عندنا هو منه. فكيف نتحول نحن ونصبح مثله تماماً؟ كيف يتحول الغصن في الكرمة إلى كرمة؟ إذا قطع يجف ويطرح في النار. ولهذا بعد أن أعلن الله عن كل الهبات الذي سيعطيها لنا قال: «بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً» .. ولهذا السبب إذا فكَّر أحدٌ من الناس أنه سوف يكون مثل الأقنوم الثاني، فهو مخطئ تماماً.

ولعلك تعرف أن فعل «يشترك» بمعنى «ينال» و»يأخذ»، وكل من

«يأخذ» يؤكد أنه لا يملك، وكل مَن «يطلب» يؤكد فقره، وهذا ما أعلنه الرب أيضاً بقوله: «اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم». وطالما أننا سنكون شركاء الطبيعة الإلهية، فمن الواضح أننا لا نملك، وأننا نسعى لكي نطلب. وبالتالي سنظل مثل القناة التي تعتمد على النهر الكبير وتأخذ من النهر. فإذا توقف النهر عن العطاء جفَّت القناة. وإذا امتنعت القناة عن الأخذ جفت هي بدورها. وعلى هذا الأساس، تعني شركتنا في الطبيعة الإلهية أمراً واحداً أساسياً، وهو دوام علاقتنا المباشرة مع الله كمصدر لحياة غير ترابية.

إبراهيم: لكني أجد في تشبيه النهر والقناة معنىً آخراً خطيراً. لأن المياه التي تجري في النهر هي بذاتها التي تجري في القناة .. فهل أنت تعني أن ذات الحياة الإلهية التي في الله ستكون فينا؟

جرجس: إن استنتاجك صحيح. وحقاً إن حياة الله سوف تجري فينا على النحو الذي ذكرته، ولكنك تنسى أن انقطاع المياه عن القناة يعني جفاف القناة، بينما المياه لا تنقطع مطلقاً عن النهر. وعلى هذا الأساس نحن شركاء الطبيعة الإلهية بإرادة الله، وتجري فينا الحياة الإلهية بالقدر الذي تتحمله طبيعتنا المخلوقة. وقد رأى حزقيال ذلك في رؤياه: إن النهر العظيم لا يمكن لأحد أن يسبح فيه، وهذا النهر هو الروح القدس. ولكن كما تعلم أن تدفق الحياة الإلهية فينا هو على قدر إشباع طبيعتنا، ولذلك نحن نأخذ عدم الموت، ونأخذ أيضاً البنوة، وهي إحدى بركات الله الأساسية. نأخذ البنوة منه، فنصبح شركاء الابن في بنوته للآب، ولذلك السبب دُعي الابنُ بكراً بين إخوة كثيرين. والبكر هو الوارث الشرعي لكل بركات أبيه وله السيادة على إخوته، وبأمره وسلطانه يشركه معه في الميراث. وهكذا نحن لا نملك أي شيء فينا يؤهِّلنا للبنوة، ولكن الله يمنحنا أن نكون أبناء الله في يسوع المسيح ابنه الحقيقي والوحيد.

إبراهيم: ما هو دور التجسُّد في حصول الإنسانية على شرف البنوة؟

جرجس: هذا السؤال جيد .. لأنك تعرف أن الابن هو الابن قبل التجسُّد، فهو ابن الله الأزلي، ولكنه عندما تجسَّد لم يفقد هذه البنوة، بل ظل وهو في الجسد أيضاً ابناً لله. ولأن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو اتحاد حقيقي، صار التجسُّد هو مجال إعلان هذه البنوة.

إبراهيم: ماذا تعني بأن التجسُّد هو مجال إعلان هذه البنوة؟

جرجس: البنوة الأزلية فوق إدراك العقل، أي عقل، حتى عقول الملائكة، وأرجو أن لا تقاطعني بسؤال عن الملائكة.

إن البنوة الأزلية هي فوق الإدراك، وكان هدف التجسُّد هو إعلان بنوة الابن للآب. لذلك كانت البداية هي ميلاد الرب من عذراء وبالروح القدس. هذا إعلان عن أن الابن -بشكلٍ ظاهرٍ- ليس مثلنا: ثمرة الولادة من الجسد، بل هو ابن الله الأزلي؛ لأنه بلا أب في الزمان. ثم جاء واعتمد من يوحنا المعمدان، فَحلَّ عليه الروح القدس. ولعلك تذكر أن الآب ينادي من السماء أثناء المعمودية: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». وهكذا أعلن الآب إن ابنه مُسِحَ بالروح القدس. وما كان حلول الروح القدس على الابن في المعمودية إلَّا تأكيداً على أننا نلنا مسحة البنوة معه.

وطبعاً، بدون الناسوت يصبح الكلام عن المسيح، أي الذي مُسِحَ في الأردن هو بلا معنى؛ لأن اللاهوت لا يمُسح. ثم قدَّم الابن جسده للموت، فمات ونُفِّذَ فيه حكم الموت، ولكنه قام من بين الأموات، وبذلك صار الناسوت عديم الموت لا يسود عليه الموت كما يقول الرسول: «لأن الموت الذي ماته فهو للخطية، وأمَّا الحياة التي يحياها فهي لله». وأيضاً: «لا يسود عليه الموت بعد». اللاهوت لا يموت، ولكن الناسوت مات لأنه قابلٌ للموت. أمَّا بعد القيامة، فقد أصبح اتحاد اللاهوت بالناسوت كاملاً، أو صار الناسوت غير قابل للموت. وهنا ظهر ابن الله الذي لا يموت بالقيامة من بين الأموات. وفي ذلك يقول الرسول: «وتعيَّن ابن الله بقوة

من جهة روح القداسة بالقيامة من بين الأموات».

وظهر أيضاً في الناسوت مجد اللاهوت في التجلي، وفي القدرات الغير العادية بعد القيامة ... وبعد أن أكمل الرب عمله صعد إلى السماء بناسوته، إي صار جسده غير منظور. صار جسد البهاء والمجد الذي يتجلى الآن لمن يؤمن. وهكذا -كما ترى- كانت كل إعلانات الابن عن نفسه، وعن الآب، وعن الروح القدس إعلانات ظاهرة واضحة في الجسد. ولم تكن كلمات، بل كانت أفعال. وبذلك نقول بدون أدنى شك: لولا التجسُّد لما عرفنا ابن الله، ولا عرفنا الآب، ولا الروح القدس. فقد كان التجسُّد هو المجال الوحيد الذي ظهر فيه الثالوث، وظهر فيه كل مجد ابن الله، وما يهبه لنا من نِعَم.

إبراهيم: لقد قلت إن اتحاد اللاهوت بالناسوت صار كاملاً بالقيامة .. فماذا تعني بذلك؟

جرجس: لقد قرأت هذه الفكرة عند القديس كيرلس السكندري، وقد ساعدتني على أن أتعمق قليلاً في إدراك سر التجسُّد الإلهي. يقول هذا الأب إن الرب سمح للاهوته أن يتَّحد بناسوته، ويعطي للناسوت كل أمجاد وقوة اللاهوت كلما تقدَّم الناسوت في العمر وفي القامة. وقد أراد بذلك أن يؤكد أن الاتحاد تم فعلاً، وهو اتحادٌ حقيقي. ولذلك، فإن ظهور مجد اللاهوت في الجسد هو أمر لابد أن يتم بسبب الاتحاد، ولكن الرب كان سيخيف الناس، ولذلك حجب هذا الظهور وجعله شيئاً فشيئاً كلما تقدَّم به العمر إلى أن ظهر بشكلٍ كامل بعد القيامة. ولذلك يمكننا أن نقول: قبل القيامة كان الناسوت قابلاً للموت ونزف الدم والألم. أمَّا بعد القيامة، فقد اختفت كل هذه الصفات. وبذلك اختفت من الناسوت كل الضعفات التي لا تتلاءم مع مجد اللاهوت. فما هي المشكلة في ذلك؟

اتحاد اللاهوت بالناسوت حسب شرح القديس كيرلس الكبير

إبراهيم: لا توجد مشكلة، وإنما نشأنا على الإيمان بالاتحاد الكامل بين اللاهوت والناسوت في أحشاء القديسة مريم، ولذلك انزعجت من تعبيرك الغير المألوف.

جرجس: إنه ليس تعبيري أنا، بل هو تعبير القديس كيرلس الذي يقول بالحرف الواحد: «وعلى الرغم من أنه قيل عن يسوع إنه كان ينمو في القامة وفي الحكمة وفي النعمة» (لوقا ٢: ٥٢)، فإن هذا يخص التدبير؛ لأن كلمة الله سمح لبشريته أن تنمو حسب خواصها وحسب قوانينها وعاداتها. ولكنه أراد شيئاً فشيئاً أن يعطي مجد أُلوهيته إلى جسده كلما تقدَّم في العمر حتى لا يكون مرعباً للناس إذا بدر منه عدم الاحتياج المطلق إلى أي شيء. ومع ذلك تكلموا عنه: «كيف عرف هذا الإنسان الكتب وهو لم يتعلم» (يوحنا ٧: ١٥) (تجسد الابن الوحيد فقرة ١٣).

وهكذا كانت القيامة أيضاً (راجع فقرة ١٦)، ولذلك علينا أن نفهم كل ما حدث، إنما حدث لأجلنا.

إبراهيم: فهمت الآن أن الجسد هو مجال إعلان ابن الله والآب والروح القدس. لكن مَن الذي تجسد؟ هل هو الآب أم الابن أم الروح القدس، أم الابن وحده؟ وإذا كان الابن هو الذي تجسَّد، فما هي علاقته بالآب وهو في الجسد؟

جرجس: علَّمتنا الكتب المقدسة والكنيسة الجامعة أن الذي تجسَّد هو الابن. وفي نصٍ صريح يقول الرسول بولس: «في ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة تحت الناموس لننال التبني» (غلاطية ٤: ٤). فإذا كان الله أرسل ابنه ليولد من امرأة، فمن الواضح أن الذي تجسد هو الابن، وليس الآب، أو الروح القدس. غير أن الابن لم يعلن عن ذاته فقط، بل أعلن عن الآب أيضاً والروح القدس وهو في الجسد.

إبراهيم: كيف تم ذلك؟

جرجس: لقد قال الابن الكلمة: «الذي رآني فقد رأى الآب»، و»أنا والآب واحد». ولذلك، فكل ما أعلنه في الجسد، إنما يخص الله الآب ويخصه. وكل من يقترب من الابن يستطيع أن يرى فيه إتضاع ومحبة الآب وقوته. وقد ظهرت محبة الآب والابن معاً على الصليب وفي قيامته. وعلى الرغم من أن الروح القدس ظهر بشكل مستتر في معمودية الابن، إلَّا أن إعلانه بشكل ظاهر كان مؤجَّلاً إلى يوم العنصرة عندما حلَّ بشكلٍ ظاهرٍ في الألسنة النارية. ونحن لم نحظَ بإعلان الروح القدس أكثر من ذلك، ذلك أن الروح القدس يظل غير ظاهر بالمرة لم يكشف عن ذاته، وإنما وُهب للكنيسة لكي يعلن الابن، فهو الذي يقود القلوب إلى الإيمان والاعتراف بالمسيح كربٍّ ومخلصٍ كما في قول بولس الرسول: «لا يستطيع أحد أن يقول إن المسيح رب إلَّا بالروح القدس. وقد قال القديس ايريناوس: «إن الروح يعلن الابن، والابن يعلن الآب. ورغم أن الروح يعلن الابن إلَّا أن الروح لا يعلن ذاته، ويكتفي بإعلان الابن».

وقد ذكر عدد من اللاهوتيين عدة أسباب عن لماذا لا يعلن الروح عن نفسه ويكتفي بإعلان الابن والآب، فقالوا إن ذلك حتى لا يرتبك العقل البشري. ولأن إعلان الروح القدس مؤجَّلٌ لحياة الدهر الآتي، ولذلك يشرح بعض الآباء عبارة «المن المخفي»، أي المن الغير منظور في سفر الرؤيا على أنه الروح القدس، وهو أيضاً نهر الحياة الذي نراه في المدينة المقدسة أورشليم السماوية.

وأعتقد أن الروح القدس لا يعلن عن نفسه إلَّا بعد أن نفهم تدبير التجسُّد وندركه. وكما تلاحظ إن الابن هو الذي تجسَّد وترك مهمة إعلانه أو إظهاره للروح القدس، وهو لم يظهر مطلقاً، بل بشكل رمزي في الحمامة وفي الألسنة النارية يوم الخمسين، وكلا الظهورين لا يعلن إلَّا القليل جداً عن الروح القدس، والسبب الواضح هو تجسُّد الابن.

إعلان الروح القدس عن أقنومه

إبراهيم: ماذا تعني بقولك؟ .. هل تجسُّد الابن هو الذي أجَّل إعلان الروح القدس عن أقنومه؟

جرجس: نعم بكل تأكيد. لكي يكتفي الروح بإظهار أو إعلان الابن المتجسِّد، ولكي تظل طبيعة الروح القدس الروحية غير المنظورة مجهولة منَّا، فندرك أن التجسُّد الذي رغم أنه مرئي، إلَّا أن إدراكه وفهمه لا يتم بقوة منظورة، بل بقوة الروح القدس الغير المنظور.

إبراهيم: لقد ذكرت إن الروح القدس حلَّ على الابن في الأردن. فكيف حلَّ عليه الروح القدس، وهو واحد مع الروح القدس؟

جرجس: إن الروح القدس لم يحل على الابن أزلياً .. وكل مَن يُعلِّم هذا التعليم، فهو ناقص الإدراك .. ولكنه حلَّ على الابن في الجسد. وقد ذكر آباء الكنيسة في هذا الصدد الكثير. لم يقبل الابنُ الروحَ القدس، وإنما قبله ناسوته لأجل الإنسانية.

إبراهيم: ألا ترى أنك تفصل الأقانيم .. بل تقسِّم الابن الواحد إلى اثنين؟

جرجس: أمَّا عن فصل الأقانيم، فهذا غير صحيح؛ لأن الأناجيل الأربعة تقول إن الروح القدس حلَّ على المسيح في الأردن. والآباء يقولون إن الروح القدس حلَّ على المسيح؛ لأنه آدم الثاني الذي أخذ الروح القدس لأجلنا.

أمَّا عن تقسيم الابن، فهو غير وارد. وإذا اعتبرت أن حلول الروح هو تقسيم الابن إلى اثنين، فماذا عن الموت على الصليب، والقيامة التي يقول عنها الرسول بولس إنها تمت بقوة الروح القدس؟ (رومية ١١: ٣).

إبراهيم: ما أعنيه هنا هو أن الابن المتجسد صار اثنين: الأقنوم الثاني الذي هو واحد مع الآب ومع الروح القدس في الجوهر، والإنسان يسوع المسيح الذي مُسح بالروح القدس كما تقول. هذه هي النتيجة الحتمية لشرحك.

شرح معمودية المسيح

جرجس: قبل أن أُجيب على سؤالك، سوف أستشهد بالقديس كيرلس السكندري عمود الدين، فهو أكثر من شرح اتحاد الناسوت باللاهوت في المسيح الواحد. يقول هذا الأب: «بسبب تعدي آدم صارت الخطية في الكل» (رومية ٥: ١٤) وفارق الروح القدس الطبيعة البشرية التي صارت مريضة في كل البشر. ولكي تعود الطبيعة البشرية من جديد إلى حالتها الأولى احتاجت إلى رحمة الله، لكي تُحسَب برحمته مستَحِقة الروح القدس. لذلك صار الابن الوحيد كلمة الله إنساناً، وظهر للذين على الأرض بجسدٍ من الأرض، ولكنه خال من الخطية. حتى فيه وحدهُ تُتوَّج الطبيعة البشرية بمجد عدم الخطية وتغتني بالروح القدس، وتتجدد بالعودة إلى الله بالقداسة؛ لأنه هكذا تصل إلينا النعمة التي بدايتها المسيح البكر بيننا. ولهذا السبب يُعلِّمنا داود النبي المبارك أن نرتل للابن: «لذلك مسحك الله إلهك بزيت البهجة» (مز ٤٥: ٧)، فكأن الابن قد مُسح كإنسان بمديح عدم الخطية. وكما قلت إن الطبيعة البشرية قد مُجِّدت فيه، وصارت فيه مستحقة للحصول على الروح القدس الذي لن يفارقها كما حدث في البدء. صارت مسرة الروح القدس أن يسكن فينا. لذلك أيضاً كُتب إن الروح القدس حلَّ بسرعة على المسيح واستقر عليه (يوحنا ١: ٣٢). فالمسيح هو كلمة الله الذي لأجلنا صار مثلنا في صورة العبد، ومُسح كإنسان حسب الجسد، ولكنه –كإلهٍ– يمسَحُ بروحه الذين يؤمنون به» (تجسُّد الابن الوحيد فقرة ١).

وكما نرى أن القديس كيرلس لم يقسِّم المسيح الواحد، وإنما أراد الابن أن يمسح الروحُ القدس جَسَدَه ويحل عليه، فيكون بذلك حلولاً علينا كما رأينا في كلام أبينا كيرلس عامود الدين. وبذلك ينقل المسيح هذا الاستحقاق لكل الذين يؤمنون به. وهكذا نرى أن الروح اشترك مع الابن في خلاصنا

عندما هيَّأ له جسده من أحشاء العذراء، وعندما مسحه لكي يؤهِّل هذا الجسد ليكون بدايةَ ورأسَ الجنس البشري الذي نال الروح القدس. فالروح القدس يشترك مع الابن في تقديس الطبيعة البشرية، ولكن الطبيعة البشرية لها بداية جديدة، ليس آدم الأول بل آدم الثاني.

فكيف حدث تقسيم للمسيح الواحد؟ إنني بدوري أريد أن أسألك سؤالاً هاماً: إذا كان اللاهوت لا يموت، فكيف مات الناسوت؟ ألا ترى أن هذا تقسيماً للمسيح الواحد عندما تقول إنه مات على الصليب؟

إبراهيم: اللاهوت فعلاً لا يموت، ولكن الناسوت قابلٌ للموت، بل مات فعلاً .. وما أفهمه هو أن الابن ترك جسده يموت واحتمل بذلك عار الموت، فهو عملٌ يدلُ على وحدة شخص المسيح.

جرجس: بالصواب تكلمت. لأن موت الناسوت وعدم موت اللاهوت يؤكد وحدة شخص المسيح، وليس كما يظن العوام من الناس أنه تقسيمٌ للمسيح الواحد. لقد ترك الابن المتجسد جسده ليموت، ثم أقامه لأن هذا الجسد مُتَّحدٌ باللاهوت، وبذلك سمح للجسد أن يموت لكي يتحول جسده بعد ذلك ويصبح جسداً عديم الموت، حيَّاً وواهباً الحياة للكل، قائماً من الأموات وكل من يتَّحد به لا سيما في السر المجيد -الإفخارستيا- ينال القيامة من الأموات حسب قول الرب نفسه: «وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

كنيسة جسد المسيح

إبراهيم: لقد ذكرت السر المجيد، الإفخارستيا، ونحن نأخذ هذا الجسد السري غير المنظور. وما يحيرني هو أن المسيح أعطى جسده قبل الصليب للتلاميذ في العلية ولم يعطِ جسده بعد القيامة، فهل نحن نأخذ المسيح المصلوب أم الجسد الممجد؟

جرجس: لعلك لاحظت أن الرسول بولس يستخدم دائماً عبارة قوية، وهي:

«جسد واحد»؛ ولذلك ليس للرب جسدين: واحد قبل الصليب، وواحد بعد الصليب. بل جسد واحد وروح واحد. رب واحد إيمان واحد ومعمودية واحدة (أف ٤: ٤-٥)، فجسد المسيح «واحد»، وليس له سوى جسد واحد، هو الذي صُلب، وهو الذي قام، وهو الذي لا يزال الآن في مجد الآب. وفي السر المجيد نحن نأخذ هذا الجسد الذي وُلِدَ من العذراء والذي مُسح بالروح القدس والذي صُلب على الصليب والذي قام من بين الأموات؛ لأن المسيح واحدٌ، أو كما يقول الرسول بولس: «يسوع المسيح هو هو أمس واليوم والى الأبد». فما حدث في ناسوت المسيح من تغيرات كانت لفائدتنا وخلاصنا.

ولذلك نحن نأخذ هذه التغيرات منه هو مباشرة. وفي سر الإفخارستيا نحن نأخذ هذا الجسد الذي وُلد ومُسح في الأردن وصُلب وقام. نأخذه بكل ما فيه من نِعم وبركات استُودِعت فيه، ولذلك لا غلبة لنا على الخطية والموت ما لم نأخذ ذلك الناسوت الذي غلب الخطية والموت بالصليب والقيامة.

إبراهيم: لقد ذكرت أن الروح القدس حلَّ على الرب في المعمودية في الأردن، ولم يحل عليه بعد ذلك. بينما نحن في القداس نطلب حلول الروح القدس على الخبز والخمر لكي يصبحا جسد الرب ودمه. ألا يُعتبر حلول الروح القدس في الأردن كافياً؟

جرجس: سؤالٌ جيد .. وفي ضوء ما ذكره الآباء كان حلول الروح القدس في الأردن بالذات وقبل الصليب هو تأكيداً لقداسة الناسوت. فالروح القدس لا يسكن في الخطاة والعصاة، والذين لا شركة لهم مع الله. ولذلك كان حلول الروح القدس قبل الصليب تأكيداً على قداسة الحمَل الذبيحة الذي يحمل خطية العالم كله. ولا تنسى أن هذه شهادة الذي عمَّده في الأردن، أي يوحنا المعمدان.

أمَّا عن حلول الروح القدس في القداس على الخبز والخمر، فهو تدبيرٌ

جيدٌ وغنيٌّ، موضوعٌ لإعانة الضعف البشري وإعلان حقيقة السر المجيد. ففي الواقع أن الروح القدس حلَّ على الكنيسة ولم يفارقها؛ لأن الرب يقول: «يمكث معكم إلى الأبد»، ولكننا نستعمل مثل هذه الأفعال «حلَّ» «جاء» ومثلهما للتأكيد على أن الله فعل شيئاً لم يكن معروفاً من قبل. ولذلك فاستدعاء الروح القدس ليحل على الخبز والخمر في سر الإفخارستيا ليس لأن الروح غائب، بل هو حاضر في الكنيسة، ولكن كما تفهم من صلاة الاستدعاء نفسها، أن حلول الروح القدس إنما يجعل الخبز والخمر جسد الابن الكلمة ويُظِهرهما كجسد ودم المخلص.

وهذا يؤكد لنا أن تحول الخبز والخمر هو عمل الروح القدس، وأنه بعد التقديس يعلن لنا الروح القدس أن الذي على المذبح هو جسد ودم ربنا يسوع المسيح. فلا الذكاء ولا المقدرة البشرية قادرة على إدراك أو تصوُّر التغيُّر الذي يتم في الخبز والخمر، وإنما هو الروح القدس الذي يعلن ويقدِّس.

الكنيسة تتكون في الإفخارستيا

إبراهيم: إذا كان جسد المسيح هو جسدٌ واحد، فهو ذات الجسد الذي نراه على المذبح أم هو جسدٌ جديد يصنعه الروح القدس؟

جرجس: علَّمتنا الكنيسة أن نقول: هوذا كائنٌ معنا عمانوئيل إلهنا، حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم كله». فالذي على المذبح هو عمانوئيل. وتحوُّل الخبز والخمر ليس معناه أن جسداً جديداً قد أُضيف؛ لأن المسيح لا ينقص ولا يزيد، إنما هو هو لا يتغير. وجسد المسيح هو هو، ولكن المتغيِّر هو الخبز والخمر. لذلك، فإن عمل الروح القدس في هذين العنصرين هو لأجلنا نحن الضعفاء. على كل حال إن الكلام على هذا السر المجيد لا يمكن فهمه إلَّا إذا فهمنا الكنيسة كجسد المسيح.

إبراهيم: وهذا أيضاً موضوعٌ يشغلني لأن الكنيسة هي جسد المسيح، والإفخارستيا هي جسد المسيح، وجسد المسيح كما ذكرت في مجد الآب، فما هي العلاقة بين هذه الأجساد؟

جرجس: لا توجد أجساد، بل جسدٌ واحد، كما قال الرسول. فالمسيح الواحد يعطينا جسده، ولذلك نصبح نحن جسده. والقداس الباسيلي يقول بكل وضوح: «اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن ننال من قدساتك .. لكن نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً» .. ولاحظ أن هذه العبارة تُقال بعد استدعاء الروح القدس، وبعد تحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح. ولذلك نحن نصبح جسد المسيح عندما نتناول جسده، فيصبح المسيح فينا كلنا، ونصبح نحن فعلاً بالحق والقول جسد المسيح، وهذا يتم لا بالإفخارستيا وحدها، بل بعمل الروح القدس أيضاً.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: عندما يتناول كل مؤمن جسد الرب ودمه، يصبح في المسيح ويصبح المسيح فيه. وهذا يتم بقوة الروح القدس. وعند ذلك تصبح الكنيسة فعلاً جسد الرب. وجسد الرب واحد، هنا لا يمكن التمييز بين جسد المسيح والكنيسة والإفخارستيا. فنحن لا نعود نرى ثلاثة أشكال للجسد الواحد. فلا نميِّز بين المسيح الواحد والكنيسة؛ لأنه هو «جسد واحد وروح واحد»، ولأن الكنيسة اتحدت بالمسيح، وببعضها في السر المجيد، فصارت واحداً معه وفيه.

إبراهيم: ولماذا يتكرر هذا في كل قداس؟

جرجس: <u>أولاً</u>: بسبب الضعف؛ لأن الذين يتَّحدون بالمسيح معرضون لكل أنواع الضعف الروحي الذي يضعف هذه الوحدة.

<u>ثانياً</u>: لكي تبقى هذه الوحدة. وكما ذكرت سابقاً، إن القناة إذا انفصلت

عن النهر جفَّت. ولذلك في كل قداس تسري فينا حياة المسيح حتى وإن كنا في حالة القوة؛ لأن انقطاع حياة المسيح عنا معناه موتنا الروحي.

وثالثاً: لكي ندرك أننا في القداس نجني ثمار التجسُّد الأساسية.

إبراهيم: وما هي؟

جرجس: هي أن التجسُّد تم لكي يجمع ابن الله المتجسِّد، وأبناء الله المتفرقين إلى واحد وهو جسده، أي في أقنومه المتجسِّد.

إبراهيم: ولكن إذا كانت الكنيسة جسد المسيح، فهي هنا على الأرض، فمن هو الجالس عن يمين الآب؟

جرجس: هو رأس الكنيسة.

إبراهيم: وما هي العلاقة بين الاثنين؟

المسيح هو رأس الكنيسة

جرجس: هي علاقة الرأس بأعضاء الجسد. ولاحظ أن الرسول بولس الذي تحدَّث في (١كورنثوس ص ١٢) بكل تفصيل أكَّد أن الأعضاء، وإن كانت مختلفة، فهي مكونة من مادة واحدة وهي الجسد. وإن اختلاف الأعضاء هو اختلافٌ في الوظيفة التي يؤديها العضو، وليس في المادة المكوَّن منها العضو، فكل عضو هو –بدون أدنى شك– من ذات المادة الموجودة في كل عضو. وقد أكد أن المسيح –هكذا– هو موجود في كل عضو. لأن كل عضو هو مخلوق من ذلك العنصر الجديد، أي جسد المسيح على النحو الذي خُلِقَت منه حواء من جنب أو ضلع آدم (١كورنثوس ١٢:١٢).

ولاحظ أن عبارة «نحن من عظمه ومن لحمه» التي يستخدمها بولس عن المسيح والكنيسة، هي عبارة مأخوذة من قصة الخلق، وقيلت عن حواء. هكذا نحن صُنعنا أو خُلقنا من جديد ومن المسيح، وهذا وحده هو الذي

يجعلنا جسده. فالمسيح الكائن عن يمين الآب هو رأس الكنيسة الذي منه خُلقت الأعضاء.

وليس يمين الآب مكاناً يبعد عدة كيلومترات عن الكنيسة، أي أنه ليس الفضاء أو ذلك اللون الأزرق الذي ندعوه السماء، وإنما يمين الآب هو القوة؛ لأن اليمين ترمز دائماً إلى القوة والسلطة. ويمين الآب هو ما يقصده الابن المتجسد بقوله: «قد دفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض». وسلطان المسيح الذي يمارسه هو يمين الآب. ولذلك نحن لا نتطلع إلى مسافة في الفضاء بل إلى الآب الذي ننال منه كل بركة وقوة.

ولقد حقق التجسُّد وحدة الكنيسة لأنه جمع كل أبناء الله في واحد في ذلك الذي أخذه من العذراء وصُلب وقام به وأعطاه ميراثاً لنا نحن الأمم، وفيه صالحنا مع اليهود.

وهكذا .. نرى أن التجسُّد هو أساس وجوهر الأسرار الكنسية، بل هو الذي حدَّد مصير الإنسان ومستقبله المجيد في ملكوت الآب.

الحوار الثالث

كان الصيف قد انقضى ولم أرَ إبراهيم، وإن كنت قد سمعت أنه انضم إلى الكنيسة، وصار واحداً من المؤمنين بالمسيح.

وفي الواقع كنت متلهفاً على رؤيته لكي أطمئن على حياته الروحية ولكي نتابع الحوار الذي بدأناه.

ففي الحقيقة أحببت إبراهيم من كل قلبي لأنه يفتِّش عن معاني الإيمان، ويسأل عن كل كبيرة وصغيرة. ومثل هذا النوع من المؤمنين صار نادراً في أيامنا هذه حيث يميل الناس إلى ترديد ما يسمعونه من عبارات دون أن يسألوا عن معانيها.

وقابلت إبراهيم، فلاحظت على الفور أنه مكتئب، وأن أسئلةً جديدةً تحاربه وتحارب فكره المتوقد بنار الرغبة في المعرفة، وهكذا جلسنا نتحدث، ودار بيننا هذا الحوار الذي نقلناه هذه المرة كاملاً من جهاز تسجيل كان إبراهيم يحمله.

ولعله من الضروري أن أُسجِّل هنا كل ما كُتب كان نقلاً كاملاً لكل ما قلناه، وإن ذلك تم بموافقة إبراهيم الذي أصرَّ على أن لا يعرفه القارئ إلَّا باسمه الأول فقط.

التجسد والديانات الوثنية

جرجس: لماذا أنت منزعج وقد اختفت الابتسامة الهادئة من وجهك؟ ما الخبر يا أخي؟

إبراهيم: إنني أحمل الكثير من الهموم. فقد قرأت بعض الكتب مؤخراً ووجدت أنها تتكلم عن عقيدة التجسد وتصفها بأنها عقيدة مستعارة من الديانات الوثنية .. فما رأيك في هذا الكلام؟

جرجس: لقد قرأت هذه الكتب منذ سنوات وقد لاحظت عليها أنها:

أولاً: تقدِّم هذه التهمة بدون دليل.

ثانياً: إنها لا تقدِّم أي مقارنات بين نصوص وثنية، ونصوص الإنجيل لتؤكد الاستعارة والاقتباس.

ثالثاً: إن هذه الكتب تنسى أن المسيحية ظهرت في فلسطين وعلى أرض اليهودية وجوها الروحي واللاهوتي، ولو كانت المسيحية قد ظهرت في بابل أو مصر أو بلاد فارس، لكان من حقنا أن نشك في أصلها الوثني.

رابعاً: إن كل أسفار العهد الجديد تشير دائماً إلى نبوات أنبياء العهد القديم وهم أنبياء إسرائيل، ولا تشير هذه الأسفار إلى مصادر الوثنية، وهؤلاء الأنبياء هم أقدم شهود للتوحيد.

خامساً: وهذا في غاية الأهمية، إن أسفار العهد القديم والجديد تحارب الوثنية بكل عنف .. فكيف تحارب هذه الأسفار الوثنية وتقتبس منها؟ .. والذين يكتبون هذه الموضوعات عندنا في مصر إنما يعتمدون أصلاً على جهل القراء. وأحياناً تجد بعض الكُتَّاب من المسيحيين من الذين يتعصبون للانتماء لمصر الفرعونية يدَّعون أن الفراعنة عرفوا الثالوث والتجسد والصليب .. ومثل هذه الإدعاءات لا يسندها دليل واحد، وإنما هي نوع من الفبركة يعتمد فيه هؤلاء على العاطفة القومية أو الدينية دون وجود دليل واحد يؤيد فكرتهم.

الثالوث ليس من الديانة الفرعونية

إبراهيم: لقد ذكَّرتني بما يقال عن الثالوث الآب والابن والروح القدس. فقد قال أحدهم إنه هو أوزوريس وحورس وإيزيس.

جرجس: هذا هراء. لأن قصة أوزوريس وحورس وإيزيس لها طرف رابع هو ست، وبدونه لا وجود بالمرة ولا معنى للقصة، فهو الأخ الشرير الذي قطع جسد

أوزوريس. فهل هذا ثالوث المسيحية؟ أم رابوع (من أربعة إذا صح استخدام كلمة رابوع).

إبراهيم: إذاً أنت تعتقد أنه لا علاقة بين المسيحية والوثنية.

جرجس: الموضوع ليس وجود علاقة، أو عدم وجود علاقة، وإنما هو نوع العلاقة. فالله عند العرب معروف قبل الإسلام، واسم النبي هو «محمد بن عبد الله»، فهل يعني هذا أن المسلمين عبدوا إله ما قبل الإسلام. الجواب القاطع هو لا. وإنما لا تعرف العربية –كلغة– اسماً آخر للخالق سوى «الله». وكذلك إذا أخذت المسيحية اسم الله باليونانية «ثيئوس» أو «زيوس» وبالعبرية «يهوه»، فما هو نوع العلاقة التي تتحدث عنها هذه الأسماء؟

فالديانة الجديدة تنشأ دائماً في وسط مختلف تماماً عنها، ولكنها تأخذ منه اللغة؛ لأن اللغة التي يستعملها الناس لا يمكن أن تتطور فجأة، وأي دين جديد إذا استخدم لغةً جديدةً تماماً، فإن غالبية الناس لن تفهمه. وعلى سبيل المثال كانت جهنم عند الفراعنة تسمى «آمنتي»، وهي ذات الكلمة التي تستخدم في الكنيسة القبطية، ولكنك إذا رجعت إلى النصوص الهيروغليفية لوجدت أن صورة جهنم أو الجحيم عند الفراعنة مختلفة تماماً عن صورتها في المسيحية. ولذلك ليس وجود الكلمة أو الاسم هو الدليل، وإنما وجود المحتوى والمعنى هو الدليل.

معنى ابن الله

إبراهيم: لقد وصلت يا صديقي إلى ما أريد، وهو وجود المعنى، فقد قرأت عدة كتب في الشهور الماضية تؤكد أن فرعون هو الإله المتجسّد، وأن هذا لا يختلف عن عقيدة المسيحية في شيء. فما هو ردك الواضح على هذه النقطة بالذات؟

جرجس: لقد درست العقيدة الفرعونية جيداً، ويمكنني أن أقدِّم لك قائمة بأسماء

عدة كتب جيدة كتبها أساتذة عظام لا شك في قدرتهم العلمية، وهؤلاء جميعاً لا يجدون عقيدة التجسُّد في الديانة المصرية القديمة.

إبراهيم: ألا يدَّعي فرعون أحياناً أنه ابن آمون أو ابن رع. فكيف تفهم العلاقة بين هذا الاسم، والتعبير الذي نطلقه على المسيح «ابن الله»؟

جرجس: صحيح أن الإسكندر الأكبر المقدوني دُعي ابن آمون، ولكن توجد عدة فروق .. وحقيقة هامة بين العقيدتين:

أولاً: المسيحية تؤكد أن الله هو الذي تنازل وتجسَّد، بينما الفرعونية مثلاً تقول إن روح الله أو قوة الإله حلَّت على الملك وحده.

ثانياً: إن التجسُّد في المسيحية هو حدثٌ دائم أبدي لا يتغير، فقد تجسَّد الله مرةً واحدة وإلى الأبد. بينما من المعروف أن كل ملك كان يدعى ابن الله، ويموت ويخلفه ملك آخر، وهكذا.

ثالثاً: التجسُّد في المسيحية هو إعلان عن شخص الله وطبيعته، وهو قمة تطور علاقة الله مع الإنسان لا سيما بعد أن ارتضى الله أن يعلن عن نفسه في كلمات الوحي البشري. فإذا كان قد ارتضى أن يستخدم اللغة البشرية، وهي الأقل في النوعية وأقل في المقدرة، فإن استخدامه للطبيعة البشرية هو تطور منطقي في إطار الإيمان بإلهٍ يعلن عن نفسه في الوحي. فالتجسُّد مرتبط بالإيمان بالوحي، وهو إيمان لا وجود له في الوثنية. لأن الملك في الحقيقة ليس تجسُّد للإله، بل تحل عليه قوة الآلهة، فهو لا يعلن عن شخص الله وعن محبته للبشر؛ لأن الملك يظل ملكاً مباشراً سلطانه. وما الكلام عن سلطان الآلهة إلَّا نوعٌ من تأييد حكم الملك وسلطانه.

وأنت تعلم أن المسيح جاء من نسل الملك داود، كما هو معروف من الأناجيل، لا سيما من إنجيل متى، ورغم أنه من سلالة ملكية إلَّا أنه لم يمارس أي سلطة ملكية ولم يطلب المِلك، بل على العكس كان يتكلم عن

«ملكوت الله» ولم يُظهر أي رغبة في الحصول على مُلك أرضي، ولم يعلن عن أُلوهيته لكي ينال تأييد الناس، بل على العكس لكي يُظهر اتضاع الله ومحبته.

رابعاً: إن شئت أن أضع اللمسة الواضحة التي تُظهِر الفرق بين المسيحية والوثنية في هذه النقطة بالذات، فالتجسُّد يعلن الله في المسيحية. أمَّا في الوثنية، فكل القوة الإلهية التي ينالها الملك إنما لكي تؤيد سلطان الملك لا لكي تعلن عن الله.

هل التجسد قريب من الوثنية؟

إبراهيم: أنني مقتنع تماماً بما ذكرت وقد استنار عقلي. ولكنك ألا ترى أن عقيدة التجسد على الأقل قريبة من الوثنية؟

جرجس: لست أدري بالضبط ماذا تعني بكلمة قريبة؟ إذا كنت تعني أن هناك تشابهاً، فهذا التشابه يذكِّرني بمثال سخيف كتبه أحدهم يقول إن (مزمور ١٠٤) من مزامير النبي داود هو مأخوذ ومقتبَس عن أحد أناشيد أخناتون. والحق الذي لم يكتبه كاتب هذا المقال هو أن مزمور ١٠٤ ينسب الخلق للإله القادر على كل شيء، بينما اخناتون يصف الخلق والحياة للشمس التي يعتبرها (مزمور ١٠٤) من ضمن مخلوقات الله. هذا الفرق الضخم يجعل المقارنة اللاهوتية غير جائزة بالمرة، وإن كانت المقارنة اللغوية جائزة.

إبراهيم: ماذا تعني بالمقارنة اللغوية؟ وما هي المقارنة اللاهوتية؟

جرجس: أي أننا قد نرى أن بعض الألفاظ أو الأوصاف الخاصة بالله أو بالكون أو بالإنسان هي هي بعينها في مزمور ١٠٤. وفي صلاة الملك أخناتون هذه الدراسة اللغوية هامة جداً لفهم طبيعة التدين في الإنسان؛ لأنها تؤكد أن طريقة تعبير الإنسان عن أشواقه الدينية ورغباته في معرفة الله هي طريقة واحدة في كل الأزمان. خذ مثلاً ذلك الكتاب الرائع للعالم الألماني رودلف

أتو «فكرة المقدس»، فكلمة «مقدس»، أو «قدوس» كلمة موجودة في كل لغات العالم ومعروفة في كل الديانات، وقد تختلف طريقة التعبير عن هذه الفكرة، لكن يظل في كل اللغات والاختبارات الدينية عنصراً هاماً وهو أن الإنسان عبر تاريخه يقدس شيئاً ما.

والاختلاف حول ما هو الذي يقدسه الإنسان، لا يلغي المبدأ نفسه، وإنما يؤكد أن الاختبار الديني واحد عند كل البشر. وهكذا إذا قال أخناتون إن الله قادر على كل شيء ويهب الحياة لكل الكائنات، وجاء مزمور ١٠٤ وردَّد نفس العبارة ونفس المعنى، فما هو وجه الغرابة في هذا؟

لو درست كل الديانات لوجدت أن ذات التعبيرات موجودة في كل الصلوات. ولو قلت اليوم إن الله قادر على كل شيء ويهب الحياة وسمعك كل المتدينون الذين يؤمنون بالله يهز كل واحد منهم رأسه موافقاً دون أن يسألك: هل أنت تقتبس من الإنجيل أم من القرآن أو من التوراة أم من اخناتون.

المقارنة اللغوية لا تكفي

إبراهيم: هذا رائع جداً. ولكنك كيف تفسر وجود عبارات متشابهة في نصين؟

جرجس: أولاً: إن النصين كُتبا في مكانين مختلفين وبواسطة شخصين عاش أحداهما قبل الآخر، وهذه هي حجة الاقتباس. ولكني أريدك أن تنتبه جيداً إلى حقيقة هامة، وهي أننا أحياناً نقرأ أو نسمع أحد الأمثال العامية، فلا نملك إلَّا أن نهز رؤوسنا موافقين لما فيها من حكمة نعترف بصحتها جميعاً، رغم أننا لم نسمع المثل من قبل. هذا يؤكد انتماء الإنسانية الواحدة إلى حياة إنسانية واحدة. وأحياناً نشعر أن هذه الأمثال العامية قد عبَّرت عمَّا يجول في قلوبنا وأنها أحسنت التعبير، فهل تسمي هذا اقتباساً؟

لماذا لا يكون اللقاء حول الفكرة إيمان بصحتها؟ لو قال لك واحد:

«الكذب قصير الأجل»، فهل يمكنك أن تقول شيئاً آخر أفضل من هذا التعبير الذي يشرح لك عدم جدوى الكذب؟ ألا نجد أن هذا المثل يمكن أن يكون معروفاً في الصين أو الهند أو مصر الفرعونية أو مصر الحديثة. إن الإنسان يكره الكذب ويعرف أن الكذب لابد وأن يُفتضح في يوم من الأيام.

أليس هذا اختباراً هاماً يملكه الضمير البشري عبر كل العصور؟ ولذلك، فإن ظهور نصين متشابهين هو أمر حتمي يحتِّمه صدق الإنسان في التعبير عن مشاعره الدينية أو الغير دينية.

إبراهيم: حسناً .. لقد ذكرت نقطة المقارنة اللاهوتية.

جرجس: نعم .. إن التشابه بين عبارتين ليس هاماً في حد ذاته، وإنما الذي نبحث عنه هو المقارنة اللاهوتية.

فوَصْفُ الشمس في آمون بأنها الإله القادر على كل شيء ليس كوصف الإله بأنه قادر على كل شيء. الفرق هنا ليس في الوصف اللغوي. فالكلمات واحدة، وإنما الفرق اللاهوتي هنا كبير. فهو فرقٌ بين مَن يؤلِّه الشمس، ومَن يؤمن بأن الشمس أحد مخلوقات الله. هذا ما أعنيه بالمقارنة اللاهوتية.

ولذلك علينا أن ننزع قشور الكلام لكي نرى الحقائق الكامنة تحتها.

حلول الله في البشر

إبراهيم: هل يمكن أن نعود إلى موضوع التجسُّد من جديد؟ إنني لا زلت أشعر بالقلق من وجود تشابه بين المسيحية والوثنية في نقطة هامة أساسية، وهي أن التجسُّد قائم على أساس اتحاد أو حلول إلهي في إنسان. وهكذا إذا نزعنا قشور الكلام الذي ذكرته سابقاً، وجدنا الحقيقة واحدة، وهي أن

عقيدة التجسُّد من أصل وثني.

جرجس: أنني أرجو أن تتحدث معي بكل حرية. لقد ذكرت لك أربعة فروق أساسية بين التجسُّد، وهو نزول الله إلى عالم الإنسان واتحاده بالإنسان مرة واحدة لكي يعلن عن نفسه، وهذه العقيدة ليست مثل عقيدة تأليه الملك الذي يحيا ويعيش كبشر إلى أن يتولى الملك، وعندها ينال قوة إلهية –حسب الاعتقاد القديم– لكي يستطيع أن يصرِّف شئون المملكة. وأنا أرى أن الفروق التي ذكرتها كافية، ولكنني مع ذلك أُضيف فرقاً جوهرياً، وهو أن ما حدث في التجسُّد عندما تجسَّد ابن الله كانت بداية تأسيس الكنيسة، وهي الجماعة التي تحصل على نتائج التجسُّد، بينما في الوثنية –وأيضاً مع الفارق– يظل عمل الملك في قيادة الجيش وإدارة شئون المملكة. إن الكنيسة المصرية علمتنا عبارة هامة، ولا تنسى أنها كنيسة الذين وُلدوا وعاشوا في أرض مصر التي كانت تقدِّس الفراعنة. تقول الكنيسة القبطية عن التجسد: «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له». فالابن الكلمة أخذ الناسوت لكي يعطينا غنى وبركات البنوة. أنه تجسَّد لكي يرفع كل الذين يؤمنون به. بينما إذا جاز لنا –رغم أن هذا خطأ– أن نقول إن الملك هو قوة الله المتجسِّدة، فهو لا يعطي أحداً المشاركة في الملك. ألا ترى أن عمل الله في الملك يكشف عن الدافع السياسي وراء تأليه الملك؟

إبراهيم: لقد أجبت حسناً. ولكنك لم تشرح التشابُه بعد؛ لأنه سواء تنازل الله وصار إنساناً، أم ارتفع الإنسان فصار إلهاً، فالنتيجة النهائية هي تأليه الإنسان سواء كان هذا الإنسان مسيحياً أم أحد الفراعنة.

جرجس: هذا غير حقيقي تماماً .. إن تنازل الله لكي يرفع من شأن الإنسان ليس مثل ارتفاع الإنسان إلى مكانة الله. فالأول ممكن؛ لأنه يستند على قوة الله ومحبته. والثاني مستحيل؛ لأنه يتجاهل ضعف الإنسان وعجزه. ولذلك قلت لك إن دراسة الفروق اللاهوتية هام جداً لفهم العقيدة. أمَّا تأليه

الإنسان في المسيحية، فهو تأليه كل البشر. أمَّا تأليه الفرعون، فهو تأليه شخص واحد يخضع له البشر باسم هذا التأليه. هو في الواقع له هدف سياسي محدود. لأنك إذا درست كتاب الموتى بكل دقة وجدت أن الفرعون الإله يتساوى مع الإنسان أي إنسان، أي أنه سوف يفقد أُلوهيته بمجرد أن يموت ويحاسب أمام أوزيريس.

بينما في المسيحية سوف تزداد مكانة الإنسان بعد الموت، سوف يرتفع إلى مكان روحي أعظم وأرفع بكثير طبقاً لما قاله يوحنا تلميذ المسيح: «أيها الأولاد نحن الآن أولاد الله، ولم يظهر بعد ماذا سنكون. ولكن متى ظهر ذاك حينئذ سنكون مثله»، وهو هنا يتحدث عن تطور آخر بعد الموت، يتساوى فيه الإنسان مع الذين سبقوه من البشر ولا يفقد ما حصل عليه، بل يرتفع إلى مستوى أعلى.

إبراهيم: إنك لم تُجِب على سؤالي بعد ..

جرجس: أنا أعرف ما الذي يعذِّبُك .. أنت تريد عقيدة فريدة وحيدة ولا مثيل لها ولا علاقة بها بما سبقها من لغات أو اختبارات بشرية. لست أدري أتريد عقيدة نازلة من القمر أو المريخ أو الشمس لا مثيل لها على الأرض، فهذا مستحيل تماماً. العقيدة الدينية أياً كانت هي اختبار إنساني في دنيا الإنسان. وأي عقيدة دينية لا علاقة لها بدنيا الإنسان لن تكون عقيدة الإنسان مهماً كانت.

فالعقيدة يجب أن تكون قريبة من وجدان الإنسان وفكره. وليست دعوة غريبة فائقة لا علاقة لها بدنيا الإنسان. ولذلك إذا كان التجسُّد قد دخل الفكر البشري، فالوحي أيضاً موجود في الوثنية ومعروف تماماً؛ لأن الإنسان ينتظر كلمة من الله تعينه على إدراك هدف وجوده في هذه الدنيا ومعناه. وإذا كان الإنسان قد اشتاق إلى الاتحاد بالله كما لا يزال يشتاق إلى هذا الاتحاد، وهو الطابع الغالب في كل مدارس الصوفية وفي كل

الديانات، فهذا الشوق يعبِّر عن آمال الإنسان وتطلعاته، وهذه الآمال لا يمكن أن تقابَل بالصمت المطلق من الله.

إبراهيم: هل يُفهَم من كلامك أنك تؤمن أصلاً بارتفاع الإنسان إلى مستوى الأُلوهية، ولذلك تجد عقيدة التجسُّد في نفسك صدى عميق يجعلك تدافع عنها بهذا الشكل الممتاز؟

جرجس: أنا أخشى من كلمة «ارتفاع الإنسان إلى مستوى الأُلوهية»؛ لأنني أجد أن بقاء الإنسان كإنسان هو أهم ما يصل إليه بالتجسُّد. الإنسان يسقط أحياناً إلى مستوى الحيوانات، ويرتفع أحياناً إلى مستوى الإنسان. وكلمة إنسان لا تعني بالمرة الجسد من عظم ولحم فقط. وإنما تعني الانجازات الرائعة من شعر ومسرح وفنون وسياسة وفلسفة .. الخ.

هذه كلها معالم تطور ذلك الكائن إلى إنسان، وهو تطور طويل وشاق كما نرى ويتم عبر انتكاسات. ولكن الطريق دائماً يصعد إلى أعلى، والسقطات يعقبها تقدم دائماً .. وكذلك في المجال الروحي التطور الروحي من الوثنية إلى اليهودية إلى المسيحية التي أخذت أفضل عناصر اليهودية، ثم عممتها وجعلتها عالمية. وكمثال واضح لما تناقشنا فيه، كان الملك في اليهودية يمُسح بمسحة مقدسة لكي يحل عليه روح الرب فيتمكن من قيادة الشعب. وكان الأنبياء يمسحون بالزيت وأحياناً بلا زيت لكي ينالوا روح النبوة ويقودون الشعب، هكذا جمع النبي والملك صفة أساسية، وهي القوة الإلهية التي لا وجود لها في حياة الشعب.

وعندما جاء المسيح الذي دُعي ملكاً ونبياً، كان من الواضح لكل اليهود الذين عاصروه أنه جمع في شخصه كل الملامح القديمة الخاصة بالملك والنبي، فهو قمة الوعي بعمل الله في الإنسان. وكل الشخصيات التي أخذت عطايا من الله كانت تعطي لمحةً أو عدة لمحات عن مستقبل علاقة الله بالإنسان عندما يتجسَّد ابن الله، وهذا هو مضمون عبارة: «حسب

الكتب» التي تتكرر في معظم أجزاء العهد الجديد.

إبراهيم: إذن، عبارة «حسب الكتب» لا تعني النصوص فقط، بل المعنى العام أيضاً.

جرجس: هذا صحيح ... وتعني أيضاً الصورة الكاملة.

إبراهيم: وهل تعني بذلك أن اليهودية هي أساس المسيحية؟

جرجس: نعم وبكل تأكيد، وهذا ظاهر من الحقيقة الواضحة، وهي أن الكتاب المقدس يجمع العهدين القديم والجديد، ولأنهما كتابٌ واحد، ظاهر بكل وضوح أن اليهودية هي أساس المسيحية.

اليهودية والوثنية

إبراهيم: هناك بعض الدراسات التي نُشرت بالعربية تثبت أن الديانة اليهودية والعهد القديم بنوع خاص، مقتبس عن الديانة المصرية القديمة أو الوثنية في الشرق بنوعٍ خاص، فإذا كان أساس اليهودية وثني، فلا غرابة إذا استمر خط الوثنية في المسيحية.

جرجس: إن البحث العلمي قد توقف في مصر منذ زمن بعيد جداً. وفي أوربا ساهمت المجلات العلمية في تنقية الدراسات القديمة وخلقت هذه المجلات المجال الذي يتيح للأخطاء والحقائق التفاعل الصحي السريع. أمَّا عندنا حيث ماتت المجلات العلمية، بل لم تنشأ في مصر أصلاً مجلات علمية تناقش المعتقدات الدينية، فصارت أفكارنا مشوَّشة، وأصبح المنطق والعقل يعاني من القهر والتخلف، فضاعت الحقائق وسط عدم الانضباط العلمي. وساءت الأحوال أكثر عندما أصبح أساتذة القانون يكتبون في تاريخ الديانات، وأطباء يشرحون الكتب الدينية السماوية، ومهندسون يكتبون في الطب، واختلط الغث بالثمين.

لقد قرأت أخيراً كتاب صدر هذا العام اعتمد فيه كاتبه على عدة كتب

صدرت من قبل وحاول أن يشرح فيه أن المسيحية مستمدة من البوذية. وبعدها حاول أن يشرح فيه أنها مستمدة من الهندوكية. وقد ذُهلت؛ لأن الفروق الضخمة بين البوذية والهندوكية لا تحمل أي فرص مصالحة أو تشابه بين الاثنين. أمَّا النكتة الحقيقية، فهي مقارنة البوذية بالمسيحية. البوذية أصلاً لا تؤمن بالله، ولذلك الإدعاء بأن بوذا هو ابن الله هو أشبه بمن يقول إن مالك الذي لعن الخمر كان يستحم فيها كل يوم. طبعاً لم يعتمد الكاتب على مراجع علمية عن البوذية ودفعه في ذلك التعصب وحده إلى محاولة إثبات هذه العلاقة.

ولو ظهر مثل هذا الكتاب في أي دولة أوربية لقامت المجلات العلمية بكتابة تقييم ونقد له مما يجعل الكاتب والناشر ينالا الجزاء المناسب مادياً ومعنوياً.

أمَّا في مصر، فإن مجرد ظهور كتاب في السوق يكفي لأن يؤكد أن المؤلف عالم بكل بواطن الأمور.

أمَّا عن علاقة اليهودية بالديانات الوثنية لا سيما الفرعونية، فإنني أريد أن أذكر لك في هذا المجال حقيقة هامة أساسية، وهي أن الوثنيين عرفوا العقائد التالية: عرفوا عقيدة الخلق، وقيامة الموتى، والجزاء والعقاب، وعرفوا أيضاً الصوم والصلاة والاغتسالات قبل الصلاة. وعرفوا وجود المعابد، وكان عندهم رجال دين كما عندنا، بل وكانت عندهم كتبهم المقدسة.

وهكذا تجد أن الوثنية عرفت كل ما عندنا اليوم في كل الديانات، فلا توجد ديانة بلا صلاة وصوم وبيوت للعبادة ورجال متخصصون وكتب مقدسة. أليست هذه هي قوام كل دين من الأديان؟

إبراهيم: نعم .. ولكن.

جرجس: ولكن .. ماذا؟ إنني لا أفهم لماذا لا يهاجمون الصلاة، وهي ممارسة وثنية؟

ولماذا لا يهاجمون الصوم، وهو ممارسة وثنية؟ ثم هل لأن الوثني صلى فعلينا أن نمتنع عن الصلاة؟ كان لدى الفراعنة كهنة، فهل توجد علاقة بين الكهنوت اليهودي والكهنوت الفرعوني؟ الجواب .. بكل تأكيد .. لا.

إبراهيم: لماذا؟

جرجس: لأن رجل الدين هو رجلٌ تخصص في شرح العقيدة وفي المحافظة عليها. لقد اكتشف الإنسان القديم أهمية رجل الدين، وأهمية المدارس التي يدرس فيها رجل الدين، ولذلك لا وجود لدين من الأديان بدون رجال الدين. واكتشف الإنسان حاجته إلى الصلاة، وإلى الصوم وإلى كل ما يساعده على التدين، ولذلك نجد أن الصوم والصلاة ورجل الدين والكتب المقدسة والمعابد أو بيوت العبادة هي ظواهر عامة موجودة في كل الديانات وفي كل أرجاء الكرة الأرضية. أنها تعبيرات بشرية عن احتياجات أساسية في حياة الإنسان، وعلينا أن نتذكر أن المجتمع البشري قائم أصلاً على التخصص والتخصص يعني المسئولية والاستمرار.

إبراهيم: ماذا تعني أن التخصص يعني المسئولية والاستمرار؟

جرجس: قد ندرك بعض جوانب الطب أو الصيدلة، والناس يمارسون الطب بشكل أو بآخر. ولكن يوم ينعدم وجود أطباء متخصصون يوم تنعدم المسئولية عن الصحة ويختفي الطب تماماً؛ لأن التخصص يهتم بنوعٍ خاص بمواصلة الدراسة والبحث.

وهكذا، إذا اختفى رجال الدين اختفى الدين نفسه بالتدريج، أو تغيَّرت عقائده، أو انحرف عن رسالته. ولذلك لا يكفي أن نقرأ عن وجود كهنة في مصر القديمة وكهنة في اليهودية أو المسيحية بعد ذلك، لكي ما نقول إن هذا اقتباسٌ أو نقلٌ مباشر. لا يكفي هذا، بل علينا أن ندرس الظاهرة جيداً لأنها تعبير عن حاجة بشرية.

إبراهيم: هذه إجابة جيدة. ولكنها تطرح سؤالاً آخر أرجو أن يتسع صدرك للإجابة عليه. إذا كانت ظواهر رجل الدين والمعابد والصلاة والصوم والكتب المقدسة عامة في كل الديانات القديمة والمعاصرة، وإذا كانت –كما ذكرت أنت– تعبِّر عن حاجة بشرية إلى التخصص والاستمرار والمسئولية. فهل هذا يعني أن هذه الظاهر من اختراع العقل البشري وأنها ليست من الله؟

العقل والإيمان

جرجس: العقل البشري من الله. فإذا اكتشف شيئاً صحيحاً، فهو مردودٌ إلى أصله، أي الإنسان ثم الله، أم أنك من الذين ينادون بأن كل شيء في حياة الإنسان يجب أن يكون من الله حتى الملابس التي يلبسها الإنسان؟

إبراهيم: لست أدري. إنني في حيرة فعلاً. ذلك لأنني لا أقبل أن تكون أهم مكونات العلاقة بين الإنسان والله مثل الصلاة والصوم من اكتشاف العقل البشري. فهذا يعني أنها ليست من الوحي، وهذا يهدد الإيمان بالله ويهدد أيضاً سلامة العقيدة الدينية.

جرجس: في الواقع أنا أُدرك أن مشكلتك الأساسية كامنة في رغبة دفينة في شعورك ووعيك تدفعك إلى احتقار العقل البشري، وهو نوع من اليأس والخوف من الحرية، وهو بالتالي احتقار لقدرات الإنسان والله خالقه.

إبراهيم: كيف؟ هذا اتهامٌ قاس.

جرجس: أنا لا اتهمك أنت .. ولا غيرك مما يأخذون برأيك، وإنما أنا أُحلل هذه النظرة الغريبة للإنسان، ثم لخالق الإنسان. في المجال العلمي للحياة أنت تستفيد من كل إنجازات العقل والتطور الحضاري، تستخدم السيارة والتليفون والأدوية والمطابع .. الخ. بل تستخدم الورق والحبر، وهما اختراع العقل للهجوم على العقل نفسه! كيف تعيش إذن وأنت تفصل بين ما أبدعه الإنسان وما أبدعه الخالق؟

إبراهيم: حاسب .. أنت هنا تمزج بين الله والإنسان. طبعاً إن ما أنجزه الخالق ليس مثل ما أنجزه الإنسان، أليس كذلك؟

جرجس: طبعاً أنا لا أمزج ولا أنكر على الخالق قدرته، ولكنك لا تفهم، بل أنت لا ترغب في أن تفهم إن الله خلق الكون وأعطاه هبةً للإنسان. الله خلق الحديد، ولكن الإنسان هو الذي صنع من الحديد السيف للحرب أو المحراث للزراعة. لم يأتِ الإنسان إلى عالمٍ مُرتَّبٍ فيه كل أدوات الزراعة والصناعة، بل إلى عالم خام يشبه المنجم الغني بكل المعادن الثمينة. ولذلك صارع في سبيل اكتشاف ما فيه من جواهر، وعمل على ترتيب حياته وفق حرية اختياره دون أن يتدخل الله أو يوقف تطور الحضارة. فإذا اكتشف الإنسان كيف يستخدم الماء أو البخار أو الكهرباء، فما هو الفرق بين هذا الاكتشاف، واكتشاف الصلاة كوسيلة تقرِّبُه من الله؟

طبيعة الصلاة

إبراهيم: أعتقد أن الفرق ضخم جداً وواضح. لأن الإنسان عندما اكتشف الكهرباء، فهو يكتشف وسيلة ينظم بها حياته. أمَّا الصلاة، فهي تأتي من الله ويأمر بها ويجب أن تتم وفق القواعد التي أوحى بها الله وهو الذي يحددها.

جرجس: لقد خلطت بين موضوعين. تقديم الصلاة وفق القواعد التي أوحى بها الله كما تقول، وهو موضوع مستقل بذاته. ثم الصلاة كممارسة عامة عند كل شعوب الأرض. ولذلك أنا أرى أن نترك الموضوع الأول إلى حين أن ننتهي من الموضوع الثاني. ولذلك أريد أن أتأكد أولاً من أنك تعرف تاريخ الديانات. هل تعرف أن كل شعوب العالم وأتباع كل الديانات مارست الصلاة منذ فجر الحضارة؟

إبراهيم: أنا أعرف هذه الحقيقة، فالصلاة تمارَس على كل المستويات، وعند كل الناس وفي كل الديانات.

جرجس: وكيف تفهم هذه الظاهرة؟

إبراهيم: أعتقد أنها كما ذكرت أنت سابقاً. إنها خبرة إنسانية عامة، وليس هناك أي تفسير مقبول يمكن أن نصل إليه أفضل من هذا.

جرجس: إذا كان الوثني يصلي، فهو يفعل هذا عن احتياج هو يشعر به في الرغبة في التكلم مع الله. لأن الكلام ليس أصواتاً مبهمة أو معروفة تصدر من فم الإنسان. وإنما هو علاقة وشركة بين طرفين. فالصلاة شركة بين الإنسان والله قائمة على علاقة بين طرفين. ولذلك، إذا كان الله قد حدَّد شيئاً بخصوص الصلاة، فهو ركائز الصلاة، وليست طريقة تقديم الصلاة، أو العبارات نفسها، أو عدد الركعات، أو عدد مرات الصلاة. فكل هذه التفاصيل متروكة لاختيار الإنسان. وقد تجد إنساناً يريد أن يصلي عشر مرات في اليوم، وآخر لا يجد في ذاته قدرة على الصلاة أكثر من مرة واحدة. ولذلك أظن أنه من الخطأ الواضح أن نقول إن الله حدَّد أوقاتاً للصلاة وحدَّد كلماتها. وقد قال السيد المسيح مقارناً بين الصلاة عند الوثنيين والصلاة المسيحية: «ومتى صليتم فلا تكرروا الكلام بدون وعي مثل الوثنيين، فإنهم يظنون أنه بكثرة تكرار الكلام يستجاب لهم».

إبراهيم: في الواقع إنني قرأت هذا القول منذ مدة قريبة ولم أفهم معناه. وما دمنا نتحدث عن الصلاة، فعلينا أن نناقش النقطة التي أشرت إليها من قبل، وهي أن الله حدَّد قواعد معينة وطريقة خاصة لتقديم الصلاة. فما هي العلاقة بين هذه الفكرة والنص الغامض الذي ذكرته؟

جرجس: أعتقد أن العلاقة واضحة، ذلك أن الوثنيين يظنون أن بعض الصيغ والكلمات إذا كُررت بشكلٍ دائم وبطريقة معينة تساعد على استجلاب رضاء الآلهة، بل تمكن الإنسان من الحصول على قوة إلهية، وعلى سيطرة على الله نفسه. ولذلك أوصى المسيح تلاميذه ألَّا يصلُّوا مثل الوثنيين الذين يظنون أن استجابة الصلاة هي التكرار. إن التكرار بدون وعي هو

أشبه بالسحر أو التعزيم. وهو على أي حال يتنافى مع مضمون الصلاة كعلاقة بين شخصين عاقلين يدرك كل منهما الآخر.

إبراهيم: مَن تعني بشخصين عاقلين؟

جرجس: الله والإنسان. أليس الله عاقل، والإنسان عاقل؟.. ولذلك العلاقة بينهما يجب أن تقوم على إدراك ووعي، وليس على السحر والشعوذة، ولهذا السبب بالذات لم أجد في الإنجيل مطلقاً أن الرب حدَّد أوقاتاً أو طريقةً للصلاة. والصلاة الوحيدة التي علمها السيد المسيح لتلاميذه هي ما تُدعى بالصلاة الربانية، أو «أبانا الذي في السموات ...»، وكما تعرف أنها نموذج ومثال للصلاة. ومع ذلك، فقد ترك لنا الرب الحرية لنختار. وفي الحقيقة إن الصلاة يجب أن تُمارس في ضوء التعليم المسيحي عن التجسُّد.

الصلاة والتجسد

إبراهيم: ما هي علاقة الصلاة بالتجسد؟

جرجس: العلاقة واضحة. لقد أظهر الله محبته الفائقة للإنسان بتجسُّده، وهذا يعني بكل وضوح أنه ترك له حرية اختيار الصلاة ومواعيدها. التجسُّد يعني أنه لا توجد أوقات للصلاة يجوز فيها الصلاة، وأخرى لا يجوز فيها الصلاة مطلقاً. لقد كانت الأوقات المناسبة للصلاة، وتلك غير المناسبة للصلاة هي ممارسة الوثنية. أمَّا المسيحية، فتقول: حاول أن تصلي كل حين بدون ملل. التجسُّد يعني نهاية كل الاغتسالات المرتبطة بالصلاة. لقد قَبِل الله أن يحل أو يسكن في الطبيعة البشرية. وكانت نتيجة اتحاده بالطبيعة الإنسانية نهاية كل شرائع التطهيرات؛ لأن الإنسانية تشرَّفت بحلول الله في الناسوت. كما انتهى أيضاً كل ما يقال عن الصلاة المناسبة وغير المناسبة؛ لأن الله اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحاداً دائماً أبدياً، ولذلك صارت كل الممارسات القديمة في الوثنية أو غيرها الخاصة بالصلاة بلا معنى.

إبراهيم: إذا أنت ترى في التجسُّد نهاية كل الطقوس الخاصة بالصلاة؟

جرجس: لقد عبَّرت أنت عما في قلبي. لأنني في الواقع كنت قد أجَّلت الحديث عن هذه النقطة حتى تستوعب ما سبق وذكرناه سابقاً عن آثار ونتائج التجسد. أمَّا الآن ونحن بصدد موضوع الصلاة، فإن الصلاة قد نالت معنىً آخراً أعمق بكثير لم يكن متاحاً أمام الوثني. فالارتباط بالله لم يعد عبر الكلمات والمعاني، بل صار ارتباطاً طبيعياً.

إبراهيم: ماذا تعني طبيعياً؟

جرجس: أعني أن طبيعة الإنسان صارت ماثلة أمام الله كل حين عندما اتحد بالناسوت، وصارت طبيعة الله ماثلة أمام الإنسان كل حين بالتجسُّد. ولذلك لم تعد الفرائض والقوانين الخاصة بالعبادة وما إليه ذات معنى بالمرة.

إبراهيم: كيف؟

جرجس: لقد تقدَّسنا في المسيح باتحاد طبعنا الآدمي بالله، وصارت هذه هي الوسيلة الوحيدة لطهارة الإنسان، لا عن طريق التطهير بالماء، ولا عن طريق وقت مناسب وآخر غير مناسب. كل هذه التحديدات تناسب الإنسان البعيد عن الله. ألا ترى أن الإنسان صار شريكاً في كل خيرات الله الأساسية مثل عدم الموت؟ بالتبني صار الإنسان ابناً لله في المسيح يسوع، فماذا تكون علاقة الإنسان بالله في الصلاة وقد نال التبني؟ هل تكون مثل عبودية الإنسان في العهد القديم؟ أو مثل سحر وشعوذة الوثنيين؟ أم حرية الأبناء؟ علينا أن نختار.

إبراهيم: لقد أدركت الآن ما تقصد إليه. لقد صرنا أبناء نستطيع أن نكلم الله في كل وقت، وفي أي وقت نشاء. ولكن ماذا عن الصلوات السبع التي حددتها الكنيسة الأرثوذكسية. كيف تتفق هذه الممارسة مع ما تقول الآن؟

صلوات السواعي

جرجس: تتفق بكل تأكيد. إن الصلاة كما قال الرب: «وأمَّا أنتم فمتى صليتم»، أي في أي وقت تشاء، وإن كانت الكنيسة قد رتَّبت الصلوات السبع لمساعدة وإعداد الإنسان روحياً، فهي لم تفعل ذلك لأن الصلوات جائزة في الأوقات السبع وغير جائزة في غيرها. هذا هراء.

إبراهيم: هل يمكن أن نعتبر الوثنية كمقدمة للمسيحية؟

جرجس: الوثنية مقدِّمة لكل الديانات، فقد سبقت كل الديانات السماوية. كانت الوثنية فيما بين النهرين حيث عاش إبراهيم. وكانت الوثنية في مصر قبل المسيحية. وكانت الوثنية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وإذا أخذنا في الاعتبار نشأة الديانة نفسه، فإن المسيحية لم تنشأ في وسط وثني؛ لأنها نشأت في فلسطين في وسط اليهودية، واعتمدت على اليهودية وليس على غيرها كأساس لكل ما نادت به من عقائد، ولذلك فإن ربط المسيحية بالوثنية هو عمل غير سليم من الناحية العلمية والتاريخية.

كانت مدارس الأديان المقارنة في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر قد انساقت وراء هذا التيار، وأصدرت عدة دراسات لا ينظر إليها علماء الديانات المقارنة الآن بنظرة رضا أو قبول، بل تُعد كل نتائج أبحاث القرن الثامن عشر مرفوضة تماماً.

إبراهيم: هل يمكنك أن تعطي موجزاً لهذه الدراسة ونظرتها إلى علاقة المسيحية باليهودية؟

جرجس: لقد فعلت ذلك بكل وضوح في دراسة ظهرت منذ قليل بعنوان «ابن الله في اليهودية والمسيحية والوثنية»، ولا مجال الآن لضيق الوقت لعرض كل ما قيل، وربما من الأوفق أن نلخص الدراسة فيما يلي:

أ- أن لا نصل إلى أي استنتاج إلَّا في ضوء النصوص الدينية نفسها.

ب- أن ندرس كيف تنظر الوثنية نفسها إلى عقائدها، وأن نقارن بين نظرة الوثنية ونظرة المسيحية. فلا يكفي مطلقاً أن نقول إن الثالوث كان معروفاً عند الفراعنة، بل يجب أن نقدم الدليل. إذ يجب علينا أن نرى كلمة الثالوث نفسها في النصوص، وأن نرى أن ذات مضمون عقيدة الثالوث هو ذات المضمون الوثني.

ج- أن نبحث عن الاختلافات. أيضاً عموماً، أن نرفض أن نكون سطحيين في نظرتنا إلى الأمور الهامة في الحياة الإنسانية.

إبراهيم: ما هو الطريق الذي يجب أن أسلكه في هذا العالم المعقد المتشابك مثل الغابة؟ وكيف أجد طريقي بوضوح في وسط أكوام الكتب التي تشكك في العقيدة المسيحية؟

جرجس: أولاً: الدراسة الشاقة: ولأنك معرَّض للشك، فلا سبيل لقهر الشك إلَّا بالمعرفة.

ثانياً: أن لا تكون الدراسة عقلية جافة، ذلك أن الاختبار الروحي هو أهم بكثير جداً من النظريات. ولو اختبرت أن المسيح مات لأجلك لكي يحررك من الشرور والآثام. فمن يمكنه أن يشك في هذه الحقيقة؟

ثالثاً: أن تكون عضواً فعالاً حيَّاً في الكنيسة. فتشارك المؤمنين صلاتهم وقداساتهم وأصوامهم وتنمو معهم كعضو في جسد الكنيسة؛ لأن مصير الفرد قَدَر .. أمَّا مصير الجماعة فهو قانون.

إبراهيم: هذه عبارة جيدة جداً .. ماذا تعني؟

جرجس: لقد سمعتها من صديق اختبر الحياة وعرفها جيداً. ولذلك كما شرحها هو: الفرد عُرضة للمرض وللموت، عُرضة لأن تدهسه سيارة أو يغيب تماماً عن الحياة، فهو فرد يسقط مثل ورقة شجرة. وما أكثر أوراق الشجر التي تسقط. أمَّا الجماعة فهي لا يمكن أن تختفي، ولا يمكن أن تموت إلَّا

وفقاً للقانون الخاص بالحياة الاجتماعية، وهو قانون يعرفه الذين يدرسون المجتمع.

لقد اختفى الكثير من الأفراد حسب القَدَر؟ أمَّا الكنيسة فهي تحيا وتتحرك وتنمو وفق قانون. وليست العبرة بكم ربحت من الناس، ولكن العبرة كم غيَّرت من المجتمع .. وفكر في هذه العبارة جيداً.

طنطا ١٩٧٥

القاهرة ١٩٩٧

صلاة شهيد

أيها الإله الواحد الذي أحب جنس البشر،
واتخذ من العذراء مريم جسداً ونفساً مثل جسدنا ونفوسنا،
لكي يُظهر محبته الفائقة ...
امنحني في هذه الساعة التي يُمتَحن فيها إيماني ألا أسقط، ولا أفقد الشجاعة التي منحتني إياها ...
لأنهم عندما يعذِّبون جسدي، إنما يؤكدون تجسُّدكَ؛
لأن الجسد هو أفضل ما خلقت،
وهو والد الكلام، ومصدر المعرفة، وبيت الروح ...
اقبلني يا ابن الله؛ لأن النيران سترفعني قرباناً لك،
فاقبلني في منازل أبيك

(الأسقف الشهيد بيساريون من القرن الثالث الميلادي)